من رسائل العلامة الشيخ
عمر أبي حفص الزموري



منشورات حواركم

منشورات «حواركم»
1، شارع بشير عطار ساحة أول ماي – الجزائر
هـ : 04/04 72 66 (02)
فاكس : 02 45 65 (02)
رقم النشر : 13 11 94

من رسائل العلامة

الشيخ
عمر أبي حفص الزمّوري

(رحمه الله)

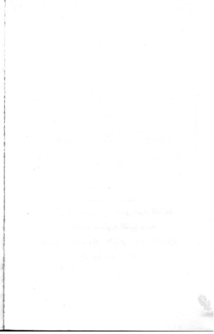
(المجموعة الثانية)

إشارات سانحة إلى بعض أسرار الفاتحة

مقالات منشورة للشيخ وعنه

تعاليق صحفية على كتابي : (فتح اللطيف)

في رحاب ليلة القدر



قصيدتي المشيرة إلى بعض أسرار الفاتحة

نور القدس لحضرة الأنس

رَدِّدَنْ ذِكْرَ الحَبِيبِ عَلَنًا ... إِنْ ذَكَرْنَاهُ نَفُوزُ بِالْمُنَى
وَارْكَبَنْ فُلْكَ الحَيَاةِ وَاسْبَحَنْ ... فِي بِحَارِ النُّورِ يَسْطَعْ مَا هُنَا
وَافْتَحِ القَلْبَ بِحَمْدٍ وَثَنَا ... تَلْمَحِ البَسْطَ وَتَقْرِيباً دَنَا
وَبِذِكْرِ اللّـــه كُنْ مُوَاظِباً ... تَرْدَعِ النَّفْسَ وَتَطْرُدْ وَسَنَا
ثُمَّ تَبْدُو مِنْ جَلَالٍ هَيْبَةٌ ... تُذْهِلُ اللُّبَّ وَتُنْسِي مَا جَنَى
وَبِلُطْفِ رِيحُ أُنْسٍ نُشِرَتْ ... تَمْلأُ الأَكْوَانَ طِيباً وَسَنَا
يَا نَسِيمَ سَاعَةٍ مَرَّتْ بِنَا ... فِي جَمَالِ القُرْبِ أُنْساً وَهَنَا
وَاذْكُرِ الرَّبَّ الجَلِيلَ وَاثْبُتَنْ ... تُكْسَ حُلَّةَ الرُّقِيِّ وَالْغِنَى
وَاذْكُرِ الرَّحْمَنَ صُبْحاً وَمَسَا ... تُلْفِ نِعْمَةً وَفَيْضاً عَمَّنَا
بِالرَّحِيمِ الْهَجْ وَكُنْ مُعْتَصِماً ... يَنْكَشِفْ سِرٌّ لَطِيفٌ بَطَنَا
مَلِكَ المُلْكِ اذْكُرَنْ بِالأَدَبِ ... تُلْفِ تَصْرِيفاً مُزِيلاً لِلْعَنَا
وَلِبَحْرِ الخِدْمَةِ ارْكَبْ سُفُناً ... لِلْنَجَاةِ مِنْ عَوَاصِفِ الفَنَا
وَالْتَزِمْ حُكْمَ الإِلَهِ يَافَتَى ... تَقْهَرِ النَّفْسَ وَتُغْطِ الرَّسَنَا
لَا تُفَرِّطْ إِذْ لَهَا سُمٌّ خَفِي ... وَبِهَا الشَّيْطَانُ دَوْماً قَطَنَا
وَلِضَعْفٍ عَنْ دِفَاعٍ أَدْخِلَنْ ... بَحْرَ عَجْزٍ وَتَذَلُّلْ وَاسْكُنَا
وَتَلَطَّفْ فِي السُّؤَالِ وَارْكَبَنْ ... سُفُنَ الرَّحْمَةِ تُلْفِ السُّكُنَا
وَتَحَصَّنْ بِبِـــحَارٍ لِلطَّلَبْ ... رَاكِباً لِفُلْكِ مَنْـــعٍ وَهَنَـــا
ذَاكَ سِرٌّ قَدْ بَدَا فَاظْفَرْ بِهِ ... تَنَلِ العِزَّ وَتَرْفَعْ عَلَنَا
وَبِنُورِ القُدْسِ فَضْلاً سُمِّيَتْ ... وَلْتَزِدْ لِحَضْرَةِ الأُنْسِ افْطُنَا

خَتْمُ هذا لأبي حَفْصٍ عُمَرْ   آخِرَ الصَّوْمِ العَظيم جَمَعْنَا
زادَهُ اللهُ صفاءً دائماً   مَعْ عِبادٍ أهْلِ سِرٍّ كمَنَا
أسْبَغَ اللهُ العَطَا الحَقُّ عَلَى   مَنْ لِنورٍ صادِقاً قَدْ رَكَنَا
صلِّ يارَبِّ على شَمْسِ الهُدَى   مَنْ عَلاَ الأَكْوانَ سِرّاً وَ سَنَا
أحْمَدَ المَبْعوثِ رَحْمَةً لَنَا   فتَحَلَّيْنا بِحِلْيَةِ الثَّنَا
وعلى الآلِ وَصَحْبٍ ثُمَّ مَنْ   كانَ لِلدِّينِ مُقيماً يَقِنَا

بسم الله الرحمن الرحيم

اللهم صلّ على رسولك الأعظم ونبيك الأكرم سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ، اللهم صلّ على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً عدد مافي أبواب الجنان وفيض الرحمن .

(تصدير للمجموعة الثانية)

الحمد لله الذي لاينتهي حبه لأوليائه وأصفيائه بانتقالهم إلى جواره ، ولا ينقطع إكرامه لحبيبهم بنعمه وآلائه ، حيث اختصّهم بفضله ، وجعل منهم العلماء المجتهدين ليقيم بهم الحجة له على خلقه ، فهم ورثة أنبيائه ، ينشرون ما أذن لهم به من العلم خدمة للدين واحتساباً ، لايبغون من غير الله عن ذلك كله جزاءً وثواباً .

والصلاة والسلام على صفوة خلقه نور الوجود ، سيدنا محمد صاحب المقام المحمود ، واللواء المعقود ، والحوض المورود ، وعلى ذريته الأبرار ، وأزواجه الأطـــهار ، وصحابته الأخيار ، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الإنتقال إلى دار القرار .

وبعد ، حصل التوفيق بفضل الله ومنّه ، فتمّ تدوين محتويات المجموعة الثانية من رسائل العلاّمة العارف بالله ، الشيخ عمر أبي حفص رضي الله عنه وأرضاه ، **ويحتوي هذا المضمون الميمون على لمحات تعد بمثابة قطرة من بحر بالمقارنة مع ما اختصّ الله به هذا العلاّمة الفذّ من إكرامات وفيوضات وعلوم وهبية وكسبية جعلنا الله وكافة المسلمين المحبين لأحبابه من المنتفعين بها في الدارين .**

ولقد تيسر هذه المرة تقديم نموذجين عن تلك المذاكرات التي كان يفيض بها في مجالسه النورانية عفوياً ودونما إعداد ، على سبيل التربية والإرشاد ، وتتعلق المذاكرة الأولى بليلة القدر وفضلها ، في حين تناول في الثانية بالتفسير الذوقي بعض أســـرار

الفاتحة حسب ماتضمنتها نونيّته العصماء الموسومة بـ « نور القدس لحضرة الأنس » .

وتم إغتنام هذه النهزة السانحة لإفادة القارئ، وإمتاعه ببعض ماتيسر نقله وتلخيصه من معالم مضيئة على طريق حياة الشيخ العامرة ، ولإيراد بعض المقالات ضمن مانشر تعليقا على كتابه المنوَّر الشريف « فتح اللطيف في التصريف على البسط والتعريف » أو تقديما له ، مقتصرين في ذلك على بعض ما واكب الطبعة الأولى ، ومغفلين بالتالي ـ منعا للإطالة ، وإرجاء إلى مناسبات أخرى إنشاء الله ـ مانشر بشأن الطبعة الثانية من نفس المصنف القيِّم والمجموعة الأولى من رسائله رضي الله عنه .

ولم يفتنا تضمين هذه المجموعة المباركة بعض الكتابات التي كان ، رضي الله عنه ، يسهم بها عبر الصحافة الوطنية لإحقاق الحق ، ووعظ الخلق ، وكذا بعض المقالات من جملة مانشر إحياء لذكريات وفاته دون تثبيت ماخصته به إذاعة القرآن الكريم مشكورة من حصص في ثلاث حلقات متتالية والإذاعة الوطنية « القناة الأولى » من خلال حصتين خاصتين أنيعت أولاهما بمناسبة الذكرى الثانية لوفاته في إطار البرنامج المعروف للأستاذ الشاعر محمد الأخضر السائحي ، بينما بُثَّت الحصة الثانية مساء يوم الثلاثاء 10 ماي 1994 الذي صادف إحياء الذكرى الرابعة لوفاته ، وهي ذكرى اقترنت ـ والحمد لله ـ بتسمية ثانوية « زمّورة » مسقط رأس أجداده بإسمه رضي الله عنه وأرضاه ، اعترافا بفضله وبجليل خدماته للإسلام ولغة الضاد . هذا فضلا عن الوقفات التكريمية التي حظي بها مشاهدو التلفزة الوطنية والمخصصة لتقديم كل من مصنفه الشريف « فتح اللطيف » و « المجموعة الأولى من رسائله » ، والمؤلفان من منشورات ديوان المطبوعات الجامعية .

وإننا نختتم هذا التصدير المقتضب بتوجهنا إلى المولى جلّ علاه ، متوسلـــــين بصاحب الجاه عليه الصلاة والسلام ، وبجميع أحباب الإله ، أن ينفعنا وذريتنا وأهلنا وأحبابنا من ذرية الشيخ وأقاربه ومريديه وكافة المطلعين على تراث هذا الشيخ الكامل ، ببركاته وفيوضاته وكراماته وبعلومه الظاهرة والباطنة ، وأن يرضيه عنّا ، ويجزينا وسائر من أسهم ، من قريب أو بعيد ، في إحياء هذا التراث الزاخر ، ابتغاء مرضاة الله ، الجزاء الأوفى ، بجاه الحبيب المصطفى عليه أفضل الصلوات وأزكى التسليم .

وسلام على المرسلين والحمد لله ربّ العالمين .

الجزائر في 17 ذو القعدة 1414 هـ

الموافق لـ 28 ماي 1994م

بسم الله الرحمن الرحيم

نبذة عن نسب وأطوار حياة الشيخ
عمر أبي حفص الزموري رضي الله عنه
(1913 ـ 1990)

ذكر الشيخ عمر أبو حفص رضي الله عنه في إحدى مذاكراته ما مؤدّاه أن العارف بالله ، من فرط اشتغاله بذكر الله سبحانه وتعالى وفنائه فيه تصبح كل لحظة من لحظات حياته بمثابة ليلة القدر التي هي خير من ألف شهر ، وهذه درّة من الدرر التي استحضرتها ، وأنا أستعيد أجواء بعض مجالسه النورانية التي أكرمني الله بحضورها ، استعدادا منّي لتقديم نبذة عن حياته العامرة بحب الله وذكره ونشر كتابه العزيز وسنّة حبيبه المصطفى صلى الله عليه وعلى آله وسلم اعتمادا على ما أورده بنفسه رضي الله تعالى عنه في المنوّر الشريف الموسوم « فتح اللطيف في التصريف على البسط والتعريف » من جهة ، وعلى ما استقيته من أفواه علماء أفاضل أحبّهم وأحبّوه وأخذوا عنه أمثال العلامة الفاضل المرحوم المولود مهري ، والعلامة الطاهر أيت علجت والشيخ العلامة الفاضل عبد الله شرع الله وغيرهم من جهة أخرى .

وإذا كانت لحظة من لحظات حياة العارف بالله بمثابة ليلة القدر من حيث مكانتها عند الله عزّ وجلّ ، فكيف بحياة عالم عامل ، عارف بالله ، نذر عمره ـ منذ نعومة أظافره ـ لخدمة الدين ونشر تعاليمه ، وتكوين الطلبة والمريدين ، سواء من خلال الدروس والخطب التي كان يقدمها مباشرة ، أو بواسطة المقالات التي كان يسهم بها في التوعية والإرشاد عن طريق الكتابة ، أو على الخصوص بفضل تلك المذاكـــــــرات

الوهبية التي ماكان مجلس من مجالسه النورانية يخلو منها ، يشنّف بها آذان المتحلقين باستمرار حوله ، ويربي بها قلوبهم ، ويجلي بها نفوسهم ، بأسلوب المعلم المربي ، شيخ الوقت ، وإمام العارفين ، المدرك لخبايا النفوس وخفاياها ، الآخذ بالأيدي في حنان وعطف الوالد المتشبع بتعاليم الإسلام السمحة . كل ذلك في فيض ربّاني ، وكلام نوراني يصدر عن صاحبه بصورة عفوية تلقائية بعيدة عن حبّ الظهور والشهرة ؟

وكيف يتسنى لنا إذن حتى مجرد التفكير في محاولة الإحاطة بمختلف الجوانب الثريّة التي تزخر بها حياة الشيخ عمر أبي حفص الزموري أحد شيوخ الإسلام الشوامخ أفاض الله عليه بما يرضيه وفوق الرضى ونفعنا به ؟!

فلقد كانت حياته مفعمة بالمواقف والبركات والكرامات والفيوضات التي تجعل منه عارفا ربانيا فذّا ، ونعمة أسداها المولى جلّ عُلاه للبلاد والعباد ، فله الحمد والشكر .

رعاه ـ سبحانه وتعالى ـ منذ صغره بعين عنايته ، فنشأ تقيًا نقيًا ورعا ، رغم اليتم المبكّر ، إذ شرع في أداء الصلاة المفروضة وهو لايتجاوز السابعة من عمره ، وأنعم الله عليه بحفظ كتابه العزيز وهو إبن العاشرة ، وعندما طلب منه أحد أقاربه ـ بسبب شظف العيش ـ أن يتولّى الإمامة وتحفيظ القرآن الكريم مادام قد ختمه ، خصوصا أنّ المنصب موجود ، أجابه رضي الله عنه ، وهو اليافع بقوله : « كيف أؤم الناس وأنا لا أتقن الوضوء بعد ؟!! »

لقد انصرف كلية ـ رضي الله عنه ـ إلى غاية واحدة تتمثل في تحصيل العلوم النافعة في نهم الشاب الصالح فكان أن أكرمه ذو الجلال والإكرام بالجلوس لمدة سنتين بين يدي عالم عامل هو سيدي أحمد بن قدّور رضي الله عنه ، ويسر له سبل التحصيل في ظرف زماني قياسي ، وأنعم عليه ، فضلا عن تلك العلوم المكتسبة ، بعلوم وهبية

لدنية يختص بها من يشاء من عباده ، فكان آية من آياته وأمارة من أمارات فضله سبحانه وتعالى إذ اشتغل بالتدريس وهو في مقتبل العمر وفي حضرة شيخه الذي قال ما معناه : « لو كان لدي وقت لحضرت دروسه !!» .

إنها العناية الربّانية :

وإذا العناية قد رمتك عيونها ثم فالمخاوف كلهن أمان

هذا ، ومنعا للإطالة في موضوع يتعذر تناوله بشمولية ، نكتفي باستعراض ثلاث محطات أورد الشيخ ، رضي الله عنه ، إثنتين منها في كتابه « فتح اللطيف » تحت شبه عنوان « مفاتيح الكتاب » بينما تتمثل المحطة الأخيرة في ذكر مقتضب لبعض الأماكن المباركة التي تكفل فيها بمهمة التدريس اعتمادا على شهادات من عاصروه وعاشوا معه أو أخذوا عنه رضي الله عنه ونفعنا به .

آ ـ نسب المؤلف وتمام سلسلة الذهب

هو عمر بن أبي حفص بن محمد بن إبن جلّو بن محمد الحسيني القسنطيني الجزائري الإفريقي الموجود في الأحد والسبعين من القرن الرابع عشر من الهجرة على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التسليم ثبّته الله على الصراط المستقيم وأدخله جنة النعيم إنه الرحمن الرحيم .

وهو من ذرّية الولي الصالح المشهور مقامه بالإحترام ، المعظم عند من يعرفه من الأنام ، الوليّ الكبير سيدي عمر العجيسي جدّنا الأعلى الشهير رضي الله تعالى عنه ونفعنا به . وإنا نورد هنا قبل تمام السلسلة كلمات تتعلق بالمقام للعلامة المشهور

الكثير التنقل الباحث عن أهل الله وذرّية الرسول صلى الله علية وسلم الشيخ سيدي الحسين الورثيلاني رضي الله عنه وأمدنا برضى أهل الله ، قال رضي الله عنه في بعض فصول رحلته يذكر أنه سافر إلى الحج مع سيدي أحمد زروق بن الحاج : وقد سافرنا معه إلى تونس نريد الحج ، فلم يتيسر لنا ولا له ذلك العام ، وبقي هو في زاوية الولي الصالح الزاهد في الدنيا على الإطلاق ، الكريم كل الكرم ، سيدي أحمد المجنوب الزموري وقد دفن في جبل إفريقية عند ولده الفاضل ، ونخبته الكامل سيدي ابن الحاج . وقال في موضع آخر في تعداد أولياء زمورة : ومنهم الولي الصالح البركة سيدي عمر العجيسي ، فإن الناس يعظمونه غاية التعظيم ، وهو جد سيدي أحمد المجنوب وقد رأيت أيضا أن عجيسة شرفاء ، نفعنا الله به . وقال في موضع آخر عندما ذكر تونس ومن تعرّف به من رجالها : وكذا معرفة الفاضل الكامل العدل المقبل على الله بجميع شراشره ، المتبتل إليه بكليته المتيب إلى الله بجميع شؤونه ، المتعبد على الإطلاق ، فلا يهمل أوقاته ، فإنه يعمرها بما ورد عنه صلى الله عليه وسلم تعميرها من ذكر وصلاة وتلاوة قرآن وتهجد وصيام . فلا تراه إلا مقبلا على الله مطمئنا بذكره ، لايفتر عن طاعة الله ، السخي بنفسه ، القوي بأنسه ، لايبخل بالطعام ، وهو كريم لجميع الأنام ، صدوق في المحبة ، موف بشروط الأخوة ، يزيد في النسك والعبادة والتزود بزاد الآخرة وهو في غاية الخوف والمراقبة ، كرمت نفسه أن تسأم عن طاعة الله ، وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم ومحبة أهل الكمال من خيار الأمة المحمدية لايعامل الكل إلا بصدق المحبة ، يغيث المضطر عند اضطراره ويؤثره على نفسه وعياله وأولاده ومن تجب نفقته عليه ، وقد تداين كثيرا ، أنفقه في محبة الله ومرضاته ، واستعان به على إطعام الطعام في مقامه وزاويته ، وهو مشهور في أهل قرينه وولايته

لايستطيع أن يصدّ عن مكروب وملهوف في محنته ، سيدي محمد بن الحاج نجل البركة القدوة والرحمة للأمة والنعمة العظيمة سيدي أحمد المجذوب نجل الشيخ البركة سيدي عمر العجيسي ثم الزموري من مدشر بوعزيز من قرى بني فرقان من وطننا . نعم إني رأيت في فائق الأشراف أن عجيسة شرفاء ، والله أعلم ، ولاشك أن أوصاف الشيخ سيدي أحمد المجذوب وأولاده لاتكون إلا في الأشراف ، فإنهم في غاية الكرم ، أورث الله مقامهم لأولادهم بمنّه وكرمه . والفاضل سيدي عبد الرحمن قام مقام أبيه بلا شك ، وقد ظننا في الله أنه يجعل البركة في جميعهم أكثر من أسلافهم . وقبر سيدي أحمد المجذوب معلوم مشهور يزار ، له حرمة عظيمة عند ملوك إفريقية وأمرائها في جبل ماطر - اهـ - بحروفه . وقرية بوعزيز التي ذكرها سيدي الحسين الورثيلاني رضي الله تعالى عنه في موطن مؤلف (فتح اللطيف) وبها ملكه من الأجداد ، ومقام سيدي عمر العجيسي باق على وراثة أبنائه ، والمؤلف هو القائم الآن به ، ولهم في المقام مقبرة خاصة بهم على الوراثة ، وشرفهم ووراثتهم متواتران عند أهل بلدتهم ، والمؤلف هو القائم الآن بإمامة الجمعة في مسجد سيدي أحمد المجذوب في قرية بوعزيز[10] قرية الجد الأعلى وهو سيدي عمر العجيسي ابن أحمد بن محمد بن عبد الله بن عبد الخالق بن علي بن عبد القادر بن عامر بن دحّو بن صالح بن سعيد ابن مروان بن يعقوب بن عبد الواحد بن زيّان بن محمد بن أحمد بن عبد الله بن ادريس بن عبد الله ابن محمد بن الحسين بن فاطمة الزهراء بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم - اهـ - من شجرة الأجداد الموروثة نقلتها بنفسي عن شجرة نقلها ابن عم الأب السيد الوقور الحاج مبارك ابن بلقاسم المتوطن والمالك بتونس رحمه الله تعالى ، ولازال نسله بهـا ،

نقلها بتاريخ التاسع والثلاثين من القرن الرابع عشر من الهجرة على صاحبها أفضل الصلاة والسلام عن الشجرة الأصلية التي أمضى فيها علماء بجاية وسلاطينها ووزراؤها وقيادها وشهد فيها جميع من أراد الله به خيرا لحضور موطن يثبت فيه الشرف كما ذكر فيها رضي الله تعالى عن الجميع ، وقال فيها :

وكلهم يشهدون بصحة شرف هذا النسب الأعلى بمدينة بجاية أعزها الله وجعلها عزاً للمسلمين والمسلمات - اهـ - مؤرخة بالسابع من القرن الثاني عشر من الهجرة على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التسليم .

هامش :

«1» : وفي خمسة وستين من القرن العشرين المسيحي بعد الإستقلال انتقل إلى عاصمة الجزائر إماماً خطيباً ، واستقر بمسجد سيدي رمضان .

ب ـ (أطوار المؤلف رضي الله تعالى عنه)

توفي أبوه أبو حفص الوارث لكتاب الله تعالى ، وتركه يتيما في نحو السابع من السنين ، فكفله أخوه الفاضل حامل القرآن العظيم السيد محمد والولي الصالح السيد علي ابن عم الأب معلم القرآن العظيم ، وكانت الكفالة بينهما وتعليم القرآن كذلك ، ولكن غالب الكفالة للأخ ، وغالب تعليم القرآن لابن العم ، فعليه حفظت القرآن العظيم . ثم تعلق قلبي بالبحث عن العلم فكنت أسمع من العامة تعظيم شيخنا الكبير ، العلامة الشهير ، الحفاظة الفهامة ذي التدقيقات العجيبة ، والنقول الصحيحة ، السيد أحمد بن السيد الحسين بن قنُور المتوفى في أوائل رجب من العام الخامس والخمسين من القرن الرابع عشر من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية من عائلة مشهورة بوراثة العلم ، يحفظ مجموع المتون حفظا صحيحا وكتب عليه تقريرات كشرح وكتب أيضا على التسهيل وكان دائما يطالع كتاب الإمام سيبويه رحمه الله تعالى ، وبالجملة فهو في النحو والتصريف لايجارى بل في جميع العلوم ، وهو مرجع العامة في قضاء الأوطار ، فلما قام عندي فضله كنت أعظمه كلما لقيته وكان يقول لـــي : المعادن لاتخيب . ثم تعلمت عليه ما كان سبباً في سعادتي ، وإن كان قليلا ، وكنت أحفظ متونا كثيرة من خطه وإن كان الجلوس بين يديه قليلا ، ولكن أجازني بخطّه ، وتعاطيت التعليم بحياته ودعا لي ، وقال لي : إن البعض قالوا لي : كيف يعلم فلان بحضرتك ، فقلت لهم : لو كان لي وقت لذهبت لأتعلم عليه وهذا منه رضي الله تعالى عنه تواضع عظيم ، وعلامة كبيرة على رضاه ، وقد أجازني رضي الله تعالى عنه ودعا لي في إجازته بعظيم الدعاء . فالحمد لله على رضاه ، ثم بعد ذلك دعاني الحال إلـــى

الإنتقال لملاقاة الرجال ، فلقيت رجالا انتفعت برضاهم ومذاكرتهم في العلوم ، وكنت عام وفاة شيخنا بعنابة فلما سمعت بوفاة شيخنا رحمه الله تعالى تغير حالي ، وكتبت قصيدة في جريدة النجاح رثاء له ، مطلعها :

دع العذول ومر عينيك أن تسكبا   دمعا على منبع العلوم وأميها

ثم رجعت إلى قرية الجد ، وأقمت فيها إمام الجمعة في جامع سيدي أحمد المجذوب الذي ذكرته قبل ، وهذا المسجد كان الإمام فيه شيخنا ، فورثت ذلك منه ، والحمد لله على فضله وإحسانه ، ثم كان لي في ما بين ذلك انتقالات لبعض الجهات دعاني الحال إلى التعلم بها ، فوقع التعارف بكثير من الفضلاء ومن ذلك أهل بلدة وادي زناتي ، فقد تخللت مودتهم القلب ، وتآنست بأخلاقهم وأحوالهم وكنا على غاية من البسط والإنشراح ، وذلك علامة على تلاقي الأرواح ، فالحمد لله اللطيف الفتّاح

ج ـ تنقلاته

ـ زاوية الجمافرة

في مستهل الثلاثينيات ، قصد العلامة عمر أبو حفص رضي الله عنه زاويـــة « الجمافرة » بولاية برج بوعريريج بنيّة التعلم ، إلا أن العكس هو الذي حدث ، حيث تولى التدريس بها لفترة وجيزة ، ويتذكر الشيخ عبد الله شيرع الله أنه كان يحفظ مقامات الحريري عن ظاهر قلب إلى جانب متون أخرى ، وهناك درّس علم العروض والقوافي لطلبة منهم الشيخ المرحوم عبد الرحمن بوعزيز ، وكان مقدم الزاوية أنذاك الشيخ علي البوديلمي رحمه الله .

- توررين (بني عيذل)

أثناء مروره بزاوية الجعافرة ، بلغ صيته ـ رضي الله عنه ـ سكان بني عيذل فتوجه إليه أعيان قرية « توررين » طالبين منه تولّي التدريس بمسجد قريتهم ، وكان الإمام آنذاك هو المرحوم « مولود أوجلواح » العائد من زاوية « الحاج حسن طرابلسي » بعنابة .. فكان من بين الطلبة الذين أخذوا عن الشيخ عمر أبي حفص رضي الله عنه علم العروض والقوافي بمعيّة آخرين منهم على سبيل المثال لا الحصر المرحوم الشيخ شرع الله رغم كبر سنّه ، ويتذكر إبنه « عبد الله » حفظه الله وهو يتجاوز الثمانين من عمره الآن ، أن سكان القرية قد ودعوا الشيخ عمر رضي الله عنه إثر انتهاء فترة التدريس في موقف مهيب ألقى فيه والده رحمه الله قصيدة أورد فيها شمائل الشيخ رضي الله عنه .

- زاوية « الحاج حسن الطرابلسي » بعنابة

في خضمّ تنقلاته عبر جهات الوطن المختلفة ، حلّ الشيخ عمر رضي الله عنه بزاوية الحاج حسن الطرابلسي بعنابة ، والحاج حسن أصله من مصراطة بليبيا الشقيقة وهو علوي الطريقة ومقدّمها بتلك الزاوية ، ولما التقى بالشيخ عمر رضي الله عنه ، أعجب به ، وطلب منه أن يقوم بالتدريس في زاويته ، ومع مرّ الأيام أصبحا ينشران بالتناوب أسبوعا بعد أسبوع مقالة وقصيدة عبر صفحات مجلة « البلاغ » الأسبوعية . وفي سنة 1936 ، والشيخ عمر بعنابة ، بلغه خبر وفاة شيخه سيدي أحمد بن قنّور ، فتغيّر حاله ، وفاضت قريحته بمرثية ملتهبة المشاعر ، جيّاشة العواطف ، ملؤها اعتراف التلميذ بفضل شيخه ومعلمه ، وسداها ولحمتها الصدق الذي يعرف به الصدّيقون ، فنشرها في جريدة « النجاح » وقد أملى ، رضي الله عنه

على بعض مريديه ، الأبيات التي استحضرها من القصيدة ، موضحا بأن الأصل قد يحتمل الزيادة ، ومشيرا ـ في ذات الوقت ـ إلى أن بالقصيدة من جهة العروض أمورا انتبه إليها ولكنه تركها عمدا اشتغالا منه بالمعنى ، وهي من البسيط .

ومهّد للقصيدة بتقديم هذا نصّه :

(ثالثة الأثافي)

« بينما آل زمورة يتصبّرون عن فقد المفضال السيد عبد الكريم بن قدور ، إذ داهمتهم داهية أدهى كانت ثالثة الأثافي رقّت لها الذكور والأناثي ، تلك هي فقد العلامة الجليل الأستاذ الشيخ أحمد بن قدّور أخ الفقيد الأول . فنكئت حينئذ الجراح ، وتجددت الأتراح ، وتراكمت الشجون ، وضجّت الرجال والنساء بالعويل والصياح ، فلطفا اللهم بعبادك المساكين ، فقد بلغ السكّين العظم ، وكادت الروح تفارق الجسم ، أما أنا الكاتب ، فلا أستطيع أن أعبر لكم عن الجوى الذي أحرق الفؤاد وفتّت الأكباد ، وقفت ياصاح ، أثناء الكتابة ذاهلا حائرا ، عيني تذرف وفؤادي يرجف كأن يومي اليوم الذي تذهل فيه كل مرضعة عما أرضعت ، وحقّ لي أن أسف وأحزن على هذه الكارثة العظيمة التي تبكي الجليد :

دع العذول ومر عينيك أن تسكبا	دمعا على منبع العلوم واعيها
لهفي وحزني واكتئابي عن أحمد	أشهى إلي من الدنيا وما فيها
إني إذا رمت صبرا عنه ذكّرني	تحقيقه في الدروس حين يلقيها
إني إذا رمت صبرا عنه ذكّرني	تدقيقه في الشروح أو حواشيها
الله أعلم يا أحمد أنّ الجوى	تخلل القلب والأحشا وحاويها
فليس يهنا بعد اليوم عيش ولا	الحياة تحلو إلى مثل ماضيها
سل المساكين من أحمد تنبئك أن	ضاعت حوائجها بفقد قاضيها
فلا هناء ولا عزٌ ولا شرف	بعد وفاة رئيسـها وهاديها

زمورة القراء بكاك عن أحمد   فرضٌ قهاتي دموعا كنت تخفيها
زمورة القراء نوحي على أحمد   فليس ذنب على من تبكي حاميها
تذكّر أحمد في السوق ومشهده   إذ الوفود تجي إليه يهديـــها
تراه في هيبة كالليث بينهـمُ   والبدر في كشفه السّبل لماشيها
إذا رأته جماعة وقد سعـــرت   نارَ النضال ولا أحــد يطفيها
نطق قائلهم هاهو جاءكـــمُ   أحمد يحكم بينـــكم ويفريها
الله يرحمك في اللحد يا أحمد   قد تــرفق بالبؤسى وتحمـيها

ثم عاد ـ رضي الله عنه ـ إلى قرية أجداده « زمّورة » فقام فيها بمسجد جدّه رضي الله عنه (سيدي أحمد المجنوب) إمام جمعة ، خلفا لشيخه المتوفّى ، ثم مدرسا بالمجان ، وبالموازاة مع الإمامة . وكان من بين الطلبة الذين التحقوا به للجلوس بين يديه الشيخ عبد الله شرع الله ، إذ بمجرد انتهائه من أداء الخدمة العسكرية ، ألحّ عليه والده المرحوم « الطاهر » أن يذهب إلى زمورة للتتلمذ على الشيخ عمر رضي الله عنه ، مغتنما في ذلك فرصة حلول جمع من فقراء الناحية بقرية « توررين » من بينهم فقير من قرية « تيزي لصفح » القريبة من زمّورة ويدعى رابح وهو من أولاد سيدي علي ، فرافق الشيخ عبد الله هذا الفقير المضياف فكان يقيم عنده ويذهب في النهار للتعلم على الشيخ عمر رضي الله عنه .

ومن بين الكتب التي كان يدرسها ، يتذكر الشيخ شرع الله أطال الله عمره في طاعته المؤلفات التالية :

- « الجوهر المكنون » في البلاغة لسيدي عبد الرحمن الأخضري .
- « شذور الذهب » في النحو لإبن هشام وهو صاحب « قطر الندى وبلّ الصدى » .
- « المرشد المعين » وهو عبارة عن شرح لإبن عاشر رضي الله عنه .
- « الصبّان » في علمي العروض والقوافي .

وفي نهاية الدراسة أقيم حفل بهيج كتب عنه مراسل « البلاغ » مقالا قيِّما استهله بهذه المقدمة :

« أقيمت ـ في المدة الأخيرة ـ حفلة باهرة بزمورة لختم دروس كان يلقيها العلامة الأستاذ سيدي أبو حفص عمر حضرها جمع من الفضلاء الأجلاء فتنوَّر بهم المجلس ، وضاءت بهم أرجاؤه ، وقام خلال تلك الجلسة شبّان أذكياء من التلامذة ألقوا على الحاضرين خطبا كانت لها رنّة في الأسماع ، وإننا نذكر خطب بعضهم وإن كان الكل يستحق الذكر لأنه لم يحضرنا أوان الكتابة نلتمس المعذرة من غيرهم كسيدي لخضر شلبي وسيدي عبد الله شرع الله .. هذا ولقد أقيم الحفل المذكور سنة 1936 » .

ـ زاوية شلاّطة

زاوية شلاّطة من الزوايا الكثيرة المعروفة في جبال زواوة ، وتقع في مشارف أقبو ، ولاية بجاية ، وهي ذات شهرة واسعة من حيث مستوى التعليم الممنوح فيها إلى درجة أنّ الإنسان عندما يراد نهره للكفّ عن التبجّح بسعة علمه يقال له « لاه ؟.. قريت في شلاطة ؟! » أي « لماذا هذا التبجح ؟! هل حصل لك شرف الدراسة بزاوية شلاطــة » ؟ والزاوية تنسب للشريف سيدي بن علي شريف وذريته بعده ، وقد عرفت بكون الطريقة المتبعة فيها شاذلية . ولقد حل بها الشيخ عمر أبو حفص رضي الله عنه في سنة 1938 على الأرجح ، وذلك استنادا إلى رواية العلامة الطاهر آيت علجت حفظه الله حيث يتذكر أن الشيخ عمر قد زار زاوية جدّه سيدي يحي العيذلي رضي الله عنه (بتامقره) قبل توجهه إلى زاوية شلاّطة . وأقام فيها ضيفا لمدة ثلاثة أيام يلقي الدروس ويذاكر ، ويضيف الشيخ الطاهر آيت علجت بأن الشيخ عمر رضي الله عنه قد زار ثانية زاوية سيدي يحي رضي الله عنه عام 1948 مع جماعة من إخوانه فطلبنا منه أن ينصحنا فألقى دروسا سررنا بها وانتفع بها الجميع .

وتجدر الإشارة إلى أن الشيخ عمر رضي الله عنه قد ألف - أثناء إقامته بزاوية شلاطة - كتيّبا عن مناسك الحج بطلب من أحد أبناء سيدي ابن علي الشريف رضي الله عنه الذي كان متأهبا لأداء فريضة الحج ، وقد طبع الكتيب الموسوم بـ « دليل الحاج » بعد وفاته رضي الله عنه ضمن المجموعة الأولى من رسائله بعد أن ألحق به إضافات في الثمانينيات .

- **زاوية سيدي موسى (تنبدار)**

انتقل الشيخ عمر أبو حفص رضي الله عنه إلى زاوية سيدي موســـــى (تنبدار) في ضواحي سيدي عيش ، ولاية بجاية ، ليقوم بالتدريس فيها ، وذلك في حدود أواخر سنة 1942 استنادا إلى شهادة الشيخ لخضر إمام مسجد سيدي الجلوب حاليا بزمورة ، وقد رافقه في تنقله السيد قدّور بن قدّور نجل شيخه وصهره سيدي أحمد بن قدّور رضي الله عنه ، حيث مكث معه هناك مدة سبعة أشهر بينما استمر الشيخ عمر في الزاوية المذكورة يواصل التدريس زهاء عامين قبل أن يقفل عائدا إلى شلغوم العيد مسقط رأسه رضي الله عنه ، ويتذكر الشيخ السيد قدور بن قدور أن الشيخ عمر كان يدرّس بزاوية تنبدار عدة كتب منها الأجرومية والرسالة لأبي زيد القيرواني في الفقه وغيرهما .

- **وادي زناتي**

لانتقال الشيخ عمر أبي حفص الزموري رضي الله تعالى عنه إلى وادي زناتي بولاية قالمة في أوائل عام 1944 قصة ذات صبغة روحية محضة ، تخللتها كرامات ليس المجال مجالا لذكرها في هذه المجموعة الثانية ، وقد تتاح الفرصة إنشاء الله لإيراد بعض تفاصيلها كما وردت على لساني الشيخ عمر أبي حفص ذاته والشيـــخ

المرحوم المولود مهري شاهد عيّان تلك الكرامات، والصديق الحميم الوفي للشيخ عمر الذي كان يردد لي لدى الحديث عنهما، أنهما روح واحدة في جسدين، رحمهما الله وأفاض عليهما بما يرضيهما وفوق الرضى.

أما ظروف انتقاله إلى وادي الزناتي فتتلخص - كما يرويها المرحوم الشيخ المولود مهري - في أن التدريس بوادي زناتي كان يتم في كل من مدرسة « التهذيب » التي أسست عام 1938، والجامع العتيق الذي يحمل اسم والده المرحوم عمار مهري المتوفي عام 1933 بوصفه إماما فيه.

وإثر انتقال المرحوم عمار مهري إلى رحمة الله، ألحّ أعيان وادي زناتي وسكانها على نجله المولود الذي لم يكن يتجاوز الثالثة والعشرين من عمره أن يخلفه في إمامة المسجد، وذلك ماتمّ فعلا.

وذكر الشيخ المولود أن التلاميذ الذين كانوا يتعلمون بوادي زناتي بعض المواد المعروفة آنذاك من لغة وجغرافيا وتاريخ، قد أراد بعض أعضاء الجمعية والأعيان إرسالهم مباشرة إلى تونس لمواصلة دراستهم العليا بجامع الزيتونة، غير أن الشيخ المولود رحمه الله رفض الفكرة بحدة، وعن اقتناع وإقناع، بسبب ضعف مستواهم، داعيا إلى ضرورة استقدام أستاذ كفؤ لإعدادهم بدروس من شأنها أن تحسّن مستواهم وترفعه وتمكنهم بالتالي من الإلتحاق إما بـ « الكتّانية » بقسنطينة، وإما بجامع الزيتونة رأسا لإتمام تعليمهم.

واستحسن الأعيان الفكرة ووافقوا عليها، وتمّ نشر إعلان في جريدة « النجاح » لتوظيف الأستاذ المأمول.

وحدث أن اطلع على ذلك الإعلان أحد سكان وادي زناتي، وكان عاملا بجريدة

النجاح ، ونظرا لكونه على معرفة بالشيخ عمر أبي حفص المقيم آنذاك بشلغوم العيد ، فقد ذهب إلى المرحوم المولود مهري واقترح عليه توظيفه وهو ماتم بالفعل .

وتكفل الشيخ عمر بتدريس المؤلفات والمواد التي كان تدريسها شائعا وقتئذ بجامع الزيتونة بتونس كالألفية وابن عاشر ورسالة أبي زيد القيرواني والسلّم في المنطق والصبّان في علم العروض والقوافي إلى آخر ماهنالك من المواد اللغوية والدينية المعروفة . واضطلع الشيخ عمر أبو حفص رضي الله عنه بتلك المهمة على أكمل وجه فتخرج على يديه العديد من الطلبة الذين التحقوا إما « بالكتّانية » في قسنطينة أو بجامع الزيتونة بتونس ومنهم من استشهد بعد ذلك في ميدان الشرف أمثال الشهيد « شطايبي » الذي يحمل إسمه فندق معروف حاليا بعنّابة ، وقد شهد الشيخ عمر أحداث الثامن ماي 1945 بوادي زناتي ، واستمر في أداء رسالته إلى غاية سنة 1947 بعد أن أتم تدريس تلك الأفواج من الطلبة .

- في جامع عين فكرون (ولاية عين مليلة)

إثر توجه الطلبة إلى كل من « الكتّانية » و « جامع الزيتونة » ، وانتهاء مهمة الشيخ عمر أبي حفص رضي الله عنه ، أقام أعيان وادي زناتي حفلا بهيجا على شرفه ورافقوه إلى (عين فكرون) حيث استقبله أعيانها وسكانها - كما يروي ذلك المرحوم المولود مهري مرافقه - استقبالا كبيرا قوامه الحفاوة البالغة والترحاب الكريم اعترافا منهم بمكانته العلمية والدينية الجليلة ، وامتنانا على قبوله دعوتهم لتولي التدريس والإمامة بمسجد مدينتهم .

وبعد مغادرته (عين فكرون) ، عاد إلى قرية أجداده « زمُّورة » التي مكث فيها ، جاعلا من بيته زاوية مفتوحة أبوابها في وجه كل راغب في أن يكرع من مناهل العلم

مجانا ، فضلا عن استقباله السكان لفض الخصامات وحل النزاعات وإصدار الفتاوي والتربية قولا وعملا وسلوكا .

ولم يغادر « زمورة » بغرض التدريس أو تولي الإمامة منذ ذلك الحين إلى غاية عام 1965 حيث التحق ببراقي إماما لفترة وجيزة جدا قبل أن يعيّن إماما خطيبا بمسجد سيدي رمضان بحي القصبة العتيد إلى غاية انتقاله إلى جوار ربه عام 1990 رضي الله عنه وأرضاه وجعل فسيح الفردوس مثواه .

بسم الله الرحمن الرحيم

اللهم صلِّ على رسولك الأعظم ونبيك الأكرم سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ، اللهم صلِّ على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلِّم تسليماً عدد ما في أبواب الجنان وفيض الرحمن .

لسورة الفاتحة - كما هو معلوم - عدة أسماء ، فهي فاتحة الكتاب ، وهي أم القرآن ، وهي السبع المثاني ، وبها افتتح المصحف الشريف ، وجاء موضوعها وآياتها السبع مشتملة - في إيجاز وإجمال - على كل الأصول والمقاصد التي جاءت في القرآن الكريم تفصيلاً وشرحاً وبسطاً .

وقد تناولها المفسرون بالشروح المفيضة ، غير أن أسرارها العظيمة لايدرك كنهها إلا المولى جلّ وعلا ، ومن حظي بفضله من العلماء العاملين العارفين .

ولقد أفرد العلامة الشيخ عمر أبو حفص رضي الله عنه ، هذه السورة الجليلة القدر ، العظيمة الشرف ، الزاخرة بالأسرار الربانية ، والأنوار الصمدانية ، بقصيدة من خمسة وعشرين بيتاً ، بعدد الأنبياء والرسل المذكورين في القرآن العظيم عليهم جميعاً صلوات الله وسلامه ، وعلى نبينا أفضل الصلاة وأزكى التسليم .

وهي قصيدة مباركة أنهى نظمها في ليلة السابع والعشرين من شهر رمضان من سنة 1398هـ الموافق لـ 1978م ، تناول فيها بالإشارات الذوقية والفيوضات الرحمانية والإيماءات الصوفية بعض معاني وأسرار « الفاتحة » مرتباً تلك المعاني وفق أربعة بحور ، لكل بحر سفينة تمكن راكبها من عبوره واجتيازه في أمن وسلام ، بفضل الله ، إذا ما استعان في ذلك ، بالتوكل على المولى جلّ شأنه ، والإعتماد على فضله ورحمته التي وسعت كل شيء ، واتخاذ الأسباب اللازمة مع خلوص النية ، من عمل على ضوء كتاب الله وسنة حبيبه المصطفى عليه أفضل الصلوات وأزكى التسليم

لاسيما إذا وفقه الله سبحانه وتعالى إلى التشبع بمعاني أعمدة الدين الثلاثة : الإسلام والإيمان والإحسان ، وأسعفه بالتزامها ، مسترشدا بحبيب الحق ، سيد الخلق عليه أفضل الصلوات وأزكى التسليم وأحبابه من العارفين رضوان الله عليهم أجمعين .

وأتى تقسيم هذه البحور على النحو التالي :

أ - بحر النور وسفينته الحياة :

واركن فلك الحياة واسبحن	في بحار النور يسطع ما هنا

ب - بحر الخدمة وسفينته النجاة :

ولبحر الخدمة اركبْ سفنا	للنجاة من عواصف الفنا

ج - بحر العجز ، وسفينته الرحمة :

ولضُعف عن دفاع ادخلن	بحر عجز وتذلل واسكنا
وتلطف في السؤال واركبن	سفن الرحمة تلف السكنا

د - بحر الطلب ، وسفينته المنع والهناء :

وتحصّن ببحار الطلب	راكبا للفُلك منّع وهنا

ولاشك أن ماتضمنته هذه الأبيات المباركات من معان سامية ، وأسرار ربانية ، ومعارف روحية لفتيّة لايتأتى استجلاؤها ، والاهتداء إلى بعض كنوزها ، وتذوق ثمراتها إلا بفهم تلك الإشارات اللطيفة والإيحاءات الطريفة ، بواسطة مفاتيح يعلم فضلها من أنعم الله عليه بحضور مجالس الشيخ عمر أبي حفص رضي الله عنه التي وصفها بقوله (مجالس أنوار ، مشارق أسرار ، عناية قهار ، بها قد توجهنا) والإستماع إلى مذاكراته العامرة بالأسرار ، الغامرة بالأنوار ، الزاخرة بالعوارف والمعارف .

ومن فضل الله علينا وعلى القراء الكرام أن أفاض على شيخنا وقدوتنا سيدي عمر أبي حفص رضي الله عنه ، بمنّه ، وأسبغ عليه نعمه وآلاءه ومواهبه وإمداداته ومجالسه وخصه بالمعارف اللدنية والأسرار الربانية ، فكان الشيخ الكامل ، شيخ الوقت

الجامع بين علمي الحقيقة والشريعة ، وبين الظاهر والباطن .

ومن فضله سبحانه وتعالى علينا أن منّ على شيخنا رضي الله تعالى عنه بتقريب بعض الأسرار إلى الأذهان ومن ذلك إشاراته التلميحية إلى بعض أسرار الفاتحة مثلما وردت عفويا وتلقائيا في تلك المجالس النورانية التي خصص جزءاً منها لشرح بعض أبيات قصيدته العصماء الموسومة بـ (نور القدس لحضرة الأنس) والمشيرة إلى بعض أسرار الفاتحة .

ولحكمة إلهية اقتصر شرح الشيخ رضي الله عنه على تسعة أبيات من جملة خمسة وعشرين بيتا ولله الحمد من قبل ومن بعد !

وتعميما للفائدة رأى أبناء شيخنا نشرها ، فجاء الشرح بعفويته وتلقائيته معبرا عن الصفاء والنقاء اللذين اتسم بهما العلامة عمر أبو حفص رضي الله عنه حسّاً ومعنى .

وسيلاحظ القارىء الكريم كون الشروح تتضمن مايبدو - لأول وهلة - وكأنه تكرار .. إنه التكرار الذي تدفق رقراقا سلسبيلا ، مليئا بالفيوضات الربانية ، مفعما بالمواهب الرحمانية لترسيخ المعاني السامية والإمدادات الصوفية الصافية في قلوب المتلقين من باب التلقين وتقريب المعاني بالإيحاءات والإيماءات في ارتجال عفوي منبعه قلب عارف ذاب في عظمة الله وفني في حبه وذكره لايشغله عن حبيبه شاغل ، ولايلتفت إلى عارض مهما بدت أهميته لغيره ناهيك عن أن يعير التفاتا إلى ما من شأنه أن يعيق المتلقي عن السير في موكب ذكر وحبّ الحبيب الأكبر سبحانه وتعالى فرضي الله عن شيخنا عمر أبي حفص ورحمه وأفاض عليه بما يرضيه وفوق الرضا وجزاه عن

الإسلام والإيمان والإحسان وعنّا أحسن الجزاء وخيره .

والصلاة والسلام على شمس الظهور على المنابر سيدنا محمد خير مبشر وأفضل آمر ، وعلى آله وصحبه وأتباعه ماتوالت سحب الرضا من ربّنا القادر .

بسم الله الرحمن الرحيم

ردنّ ذكر الحبيب علّنا　　　إن ذكرناه نفوز بالمنى

هذا البيت يشير إلى الحب الكامن في صدور العارفين ، يشير إلى حب الله **سبحانه وتعالى الذي لايبقى معه شيء** لأن الإنسان إذا كان محبّاً لله سبحانه وتعالى **يزول عنه كل شيء** ، لاتشغله دنيا ولايشغله أولاد ولايشغله مال بل يكون دائما منقادا لله سبحانه وتعالى ، أي يكون قلبه متوجها إلى الله سبحانه وتعالى يردد ذكر الله **سبحانه وتعالى ولهذا قلنا** :

ردن ذكر الحبيب علّنا ، أي ردن ذكر الحبيب كرموا ذكر الحبيب ، الحبيب **الأكبر سبحانه وتعالى** ، يا أيها السائر ، يا أيها المريد ، يا أيها القاصد لرضا الله سبحانه **وتعالى القاصد لنور الله سبحانه وتعالى** ، ردن ذكر الحبيب ، ردن ذكر الحبيب .. **إلتزم الترديد والتزم التكرار** في نفسك وفي قلبك وفي روحك وفي عقلك وفي جميع **جوارحك حتى يكون اللحم والدم** كله ذكر الله سبحانه وتعالى تصير أنت آية من آيات **الله سبحانه وتعالى** ، تصير أنت ذكر الله سبحانه وتعالى ، تصير حرفا من حروف **المعرفة ، يفيض الله سبحانه وتعالى** للإمداد والإفاضة الرحمات عليك لأنه متى أقامك في ذكره فهو أراد بك الخير ولهذا تقول السيّدة رابعة العدوية رضي الله تعالى عنها : **اللهم بحبك لي أعطني** كذا فسمعها شخص فقال لها كيف تقولين هذا وكيف تعرفين أنه **يحبك ؟! فقالت** : يابطال لولا أنه يحبني ماأيقظني وأنامك ، هو نائم وهي مستيقظة تذكر **الله سبحانه وتعالى وهذا دليل** على محبة الله سبحانه وتعالى لأنه إذا أحب عبدا أقامه **في ذكره وأقامه في عبادته** وأقامه في طاعته يقيمه الله سبحانه وتعالى ويفيض عليه **الكرامات ويفيض عليه النفحات** ويفيض عليه الأسرار ويمتعه في جميع الأطوار

فهو يتقلب دائما في نعيم الله سبحانه وتعالى . رددن ذكر الحبيب علنا فبالترديد وبكل ترديد يردده إلا ونعم الله سبحانه وتعالى تتوالى وتتجلى عليه وتترادف عليه وهذه النعم سببها ذكر الله سبحانه وتعالى . رددن ذكر الحبيب علنا ، رددن ذكر الحبيب فهو إرشاد لهذا السائر ولهذا القاصد ، رددن ذكر الحبيب أيها السائر إلى الله سبحانه وتعالى في منازل العرفان ، أول قدم تضعها في طريق الله سبحانه وتعالى وتضعها لأجل الوصول إلى رضى الله سبحانه وتعالى ، وتضعه لأجل التقرب إلى الله سبحانه وتعالى ، هو أن تشغل لسانك وقلبك بذكر الله سبحانه وتعالى وحينئذ يمتلىء قلبك وتمتلىء جوارحك وتكون كلها ذكرا لله سبحانه وتعالى فالشيطان حينئذ يفر منك فكل ذكر لله سبحانه وتعالى ولو لم تذكر ولو كنت نائما فإنك ذكر الله سبحانه وتعالى .

رددن ذكر الحبيب ، كررن ذكر الحبيب في كل وقت ، كرر ذكر الحبيب الأكبر وإذا كررته فلابد أن يتجلى لك التعظيم ، تعظيم الله سبحانه وتعالى وتتجلى لك الرحمات وتتجلى لك كل النعم من الله سبحانه وتعالى وتتجلى لك المعارف وتتجلى لك المواهب من الله سبحانه وتعالى فالمولى عز وجلّ يكرم من ذكره وفي الحديث الشريف (أنا عند ظن عبدي إذا ذكرني ، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه) أنا عند حسن ظن عبدي بي ، أنا عند حسن ظنّ عبدي إذا ذكرني أو كما ورد في الحديث الشريف يعني هو عند حسن ظنّ عبده به حين يذكره فإذا ذكره في نفسه خاليا عن الجماعة ذكره الله المولى جلّ وعزّ في نفسه بمعنى أن ذلك الذكر يكون خفيا مستورا عند الله سبحانه وتعالى وله ميزة الستر ، لايطلع عليه أحد . وإذا ذكرني في ملأ وذكرني في جماعة ذكرته في ملأ وجماعة خير منه ، يذكره وينشر إسمه عند الملائكة الكرام عليهم الصلاة والسلام وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام . وهذا يدل على فضل ذكر الله في جماعة . (فإذا ذكرني في نفسه

ذكرته في نفسي وإذا ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه) أو كما ورد في الحديث الشريف .

إن هذا يرغب في الإجتماع على الذكر ، ذلك أن الحديث يصرح إلى أن الذكر في جماعة يدخل - على كل حال - في باب التعاون على البرّ والتقوى ، وفي باب اجتماع الأرواح على طاعة الله سبحانه وتعالى . لأن العباد الذين يتوجهون بالذكر إلى الله سبحانه وتعالى متفاوتون في المراتب ، فمنهم من يكون ضعيف السير ، ومنهم من يكون قوي السير ، ومن هنا يصير ذلك الضعيف قويا حتى يجتمع بذلك المؤمن القوي بفضل تلك المجالسة على الذكر ، ويكون مع الأقوياء في الله سبحانه وتعالى ، وهكذا ترتفع صورة الذكر في جماعة ويعلو شأن الإجتماع على حبّ الله سبحانه وتعالى .

ردين ذكر الحبيب علنا إن ذكرناه نفوز بالمنى

ردين أيها السائر إلى الله سبحانه وتعالى ، لاتغفل عن ذكر الله ، يقول تعالى (ألا بذكر الله تطمئن القلوب) ويقول (فاذكروني أذكركم) فإن ذكرناه ذكرنا عزّ وجلّ .

إذا ذكرناه وتوجهنا إليه بقلوبنا فإنه يفيض علينا الرحمات والبركات والمعارف والنفحات والإمدادات ، وهذه النعم والمنن كلها بسبب ذكر الله سبحانه وتعالى ، فالذكر باب عظيم للفتوحات الإلهية ، ولهذا حثّ المولى جلّ وعزّ على الذكر وقال : ولذكر الله أكبر (وأقم الصلاة إنّ الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر) فذكر الله أكبر من كل شيء ، فما فرضت الصلاة إلا لذكر الله سبحانه وتعالى ليستشعر الإنسان عظمة الله سبحانه وتعالى وليمجّده وليقدسه وليدعوه وليكون دائما ذاكرا له في جميع الأطوار ، يردد ذكره سبحانه وتعالى ، فالإنسان إذا واظب على ذكر الله سبحانه وتعالى فلا بدّ أن تزول الحدود التي تمنعه عن مشاهدة الأنوار وعن مشاهدة

الأنوار وعن مشاهدة الأسرار لأن الإنسان إذا كان صافي القلب يكون مع الملائكة الكرام عليهم الصلاة والسلام وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام ، ويكشف له المولى جلّ وعزّ عن عالم الملكوت وعن أسرار كثيرة لايستطيع إدراكها بأية حيلة كانت ، ذلك أن هذه الأسرار تمنح بالإفاضة الإلهية وبإمداده سبحانه وتعالى ولايتم التوصل إليها بحيلة ولابتدبر أو تفكر وإنما هي بفضل الله ورحمته (قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا) الآية ، فنحن نفرح بفضل الله سبحانه وتعالى ونفرح برحمته حيث جعلنا مسلمين ، جعلنا مؤمنين ، وجعلنا نذكره سبحانه وتعالى ونمجّده ونقدّسه وجعل قلوبنا مشغوفة بحبّه وبذكره وبعظمته ، تلك العظمة التي يذوب عنها كل شيء ، (ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام) الآية ، يبقى وجه ربك ، وتبقى العظمة لله سبحانه وتعالى ، وتفنى الأكوان ، وتفنى السماوات والأرضون وجميع الخلائق . ويكون قلب العارف متوجها إلى الله سبحانه وتعالى لايجد ولايشاهد إلا الله جلّ وعزّ حتى أن نفس العارف تفنى في جانب عظمة الله سبحانه وتعالى . وقد قلنا أن سبب هذه العظمة متأتٍ من تمجيد الله ، وتقديسه وتنزيهه وذكره في جميع الأطوار حتى يمتلىء القلب بهذه الخيرات ، يمتلىء بذكر الله ، وبحبه سبحانه وتعالى ، فحبُّ المولى جلّ وعزّ هو السيف القاطع ، حب الله سبحانه وتعالى ليس عليه من مزيد ، فهو المركبة التي يطلبها كل واحد ، ولذلك كان رسول الله صلى الله عليه حبيب الله ، فهو حبيب الله ، وحبيبه صلى الله عليه وسلم هو حبيب الله سبحانه وتعالى . فالعارف بالله يطلب دائما ذكر الله يردده بقلبه ليقطف هذه الثمرة المتمثلة في المحبة في الله التي تجعل صاحبها يستريح من كل شاغل فيضحى مسرورا بالنفحات الإلهية وبالواردات التي ترد على قلبه من الفيوضات الرحمانية والكرامات الإلهية والإنعامات الصافية . هذه الرحمات كلها يفيضها الله سبحانه وتعالى على هذا القلب الذي يردد ذكر الله سبحانه وتعالى ، ولذلك قلنا :

ردّدن ذكر الحبيب ، وقلنا ذكر الحبيب ليستشعر الإنسان حبَّ الله سبحانـــــــه وتعالى ، فالحبيب هو الحبيب الأكبر ، الذي إذا ذكرته سقط كل شيء أمام هذا الذكر . الله أكبر . العظمة لله الواحد القهّار . ردّدن ذكر الحبيب ، أي الحبيب الأكبر وهو الله سبحانه وتعالى الذي لاحبيب معه . فالكل زائل . وكل مايميل إليه الطبع زائل ، لكنّ حب الله سبحانه وتعالى لايزول إذا ثبت في القلب يبقى دائما مثمرا ، يمد الإنسان بالأسرار والأنوار والفيوضات . وهذه أحوال المحبين لله سبحانه وتعالى . فليكن السائر والقاصد محبًا لله سبحانه وتعالى دائما . يردد ذكر الله ولذلك قلنا (ردّدن ذكر الحبيب) وأشرنا إلى ذكر الله هذا ـ على كل حال ـ وإن كان من غير قصد ، ولكن فيه سر عظيم ، ردّدن ذكر الحبيب ، الحبيب الأكبر ، لأن ترديد ذكر الحبيب الأكبر يقطع كل عائق ، لأن حب الله سبحانه وتعالى لايُبقي ولايذر شيئا ، فهو حبٌ لايقطعه قاطع فهو معه في الدنيا ، ومعه في القبر ، ومعه في يوم القيامة ومعه في الجنة ويتنعم به ، ولهذا يبلغ العارفون رُتَباً لو أن المولى عزّ وجلّ حجب عن قلوبهم الفيوضات والرحمات والأسرار لاستغاثوا من الجنة هذا إن كانوا في الجنة ، كما يستغيث أهل النار من النار والعياذ بالله ، لأن مقصود العارفين هو الحبيب الأكبر ، فحينئذ سواء أكانوا في الدنيا أم في الآخرة ، فإن الدنيا تصير جنّة بالنسبة إليهم لأنها دار الحبيب الأكبر ، فيكون العارف حينئذ ـ مادام فيها ـ لايحب الإنتقال ولا يحب البقاء بل يفوّض أمره إلى الحبيب الأكبر سبحانه وتعالى ، فهو المحبوب وهو المراد ، فإذا أتاه الموت فرح بقدومه على الله سبحانه وتعالى ، وإذا أبقاه الحقُّ سبحانه وتعالى فرح بالجولان في ملك الله سبحانه وتعالى ، وبعبادة الله سبحانه وتعالى ، وبتكليف الله سبحانه وتعالى الذي لايكون في الآخرة . فهذا ينبغي أن يزداد سرورا . وعلى كل حال قلنا إن العارف أيا كانت الحالة التي يوجد عليها من بقاء أو انتقال يكون هو في سرور ، فحينئذ تصير هذه هي الكعبة

ويصير الكون كله كأنه بيت الله ، والكون كله في الحقيقة بيت الله سبحانه وتعالى ، يصير الكون كله بالنسبة للعارف كعبة ، فكأنه في بيت الله أو في الكعبة المشرّفة يتشرف بفضل الله وبإكرامه سبحانه وتعالى ويتشرف بالطواف حول تلك النعم إذ ماطاف طائف ببيت الله الحرام إلا لنعم الله سبحانه وتعالى ولإمداداته ، ولكنّ العارفين إذا كانوا متوجهين إلى الله سبحانه وتعالى فإن الكعبة نفسها تطوف بهم ، فيصير العارف كعبة ، يزوره الملائكة عليهم الصلاة والسلام وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام ، فيطوفون به ، وكيف لايطوفون به وهو ـ حينئذ ـ في المقام الذي أمر المولى جلّ وعزّ الملائكة بالسجود لسيدنا آدم عليه الصلاة والسلام وعلى نبينا أفضل الصلوات وأزكى التسليم ، وما أمر الله سبحانه وتعالى الملائكة بالسجود إلا لتلك المعارف التي أفاضها على سيدنا آدم عليه الصلاة والسلام من تعليمه الأسماء والأسرار والأنوار وإفاضة الإمدادات على سيدنا آدم عليه الصلاة والسلام ، فأسجد له الملائكة عليهم الصلاة والسلام . فكذلك العارف يكون ـ في هذا المقام ـ وارثا لسيدنا آدم عليه الصلاة والسلام ، وهو من ذريته يستحق الخلافة ، هذه الخلافة ليست خلافة دنيوية .. بل هي خلافة معنوية تنزل عليه الأسرار والإمدادات والتعليمات من الله سبحانه وتعالى ، فيسجد له الملائكة ويحفون ويطوفون به ويصير هو الكعبة المشرفة ، لأن الكون كله هو بيت الله وهو أي العارف إن شئت قلت هو الحجر الأسود وهو الكعبة كلها وهو الدنيا كلها إذ يصير هو الكون كله . هذا حال الذي يتوجه بقلبه إلى الله ويمتلىء قلبه بذكر الله سبحانه وتعالى . فالمقصود من ذكر الله والثمرة منه هو حب الله سبحانه وتعالى . فمتى ردّد الإنسان ذكر الله وأكثر منه لابدّ أن ينبعث باعث يفتح قلبه لحب الله سبحانه وتعالى حتى يذهل عن نفسه وعن حسّه ، ويذهل عن جميع أحواله لايشتغل قلبه إلا بحبّ الله سبحانه وتعالى ، وتفنى جميع الكائنات ولا يبقى عنده إلا وجه الله

سبحانه وتعالى .

ربدن ذكر الحبيب علّنا . أي لعلّنا إن ذكرنا هذا الحبيب الأكبر الذي يفيض علينا ـ في كل وقت وحين ـ الإكرامات والإمدادات والإنعامات والرحمات .

ربدن ذكر الحبيب علّنا . أي لعلنا ، وهو في الحقيقة للرجاء اليقيني (لعلكم تفلحون) رجاء يقيني . هذا الرجاء متيقن لأن الله سبحانه وتعالى لايخلف الوعد والميعاد . فقد وعد الذاكرين (أذكروني أذكركم) فهو يذكرهم بالنعم والإمدادات . وعلّنا أي لعلنا إن ذكرناه ، إن ذكرنا الحبيب الأكبر نفوز بالمنى ، ونفوز بالمطلوب ، ونفوز بالمقصود ، ونفوز بالقرب من الله سبحانه وتعالى حتى يصير هو المؤنس لنا في جميع الحالات . وعلى هذا فإننا لانطلب بذكر الله أجراً ، (لانريد منكم جزاء ولا شكورا) لانريد إلا فضل الله . نذكره لينبعث باعث من قلوبنا يقربنا إليه سبحانه وتعالى . علنا إن ذكرناه نفوز بالمنى ، نفوز بالمطلوب . ومفهومه أن السائر إذا أعرض عن ذكر الله سبحانه وتعالى فإنه لايفوز بالمطلوب (ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا ، ونحشره يوم القيامة أعمى قال ربِّ لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيرا . قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى) صدق الله العظيم .

فالمولى جلّ وعزّ ينسى ، بمعنى المولى جلّ وعلا محال أن ينسى . يستحيل عليه النسيان ، ولكن هذا التعبير يقصد منه قطع الرحمة أي تقطع الرحمة على المنسي . فالمولى عالم به ولكن يقطع عنه الرحمة كأنه لم يكن . قلنا ، علّنا إن ذكرناه نفوز بالمنى ، ونفوز بالمطلوب ، ونفوز برضى الله سبحانه وتعالى وهو غاية المنى .

واركبْ فلك الحياة واسبحن في بحار النور يسطع ماهنا

لقد افتتحنا هذه القصيدة المشيرة إلى بعض أسرار الفاتحة ، بذكر الله سبحانه وتعالى وضرورة تكراره ليمتلىء القلب إيمانا ويقينا وحبًا له سبحانه وتعالى . وقد قسمنا الفاتحة إلى أربعة أقسام ، قسم سميناه (بحر النور) وهو القسم المشتمل على أسماء الله سبحانه وتعالى (الحمد لله ربّ العالمين الرحمن الرحيم ملك يوم الدين) وهي الله ورب العالمين والرحمن الرحيم وملك يوم الدين . فهذه أسماء عظام ، فيها أسرار عظيمة . وجعلنا لهذا البحر سفينة هي (سفينة الحياة) حياة القلوب ، حياة الروح ، الحياة الطاهرة الحياة الدائمة الحياة الأبدية . هذه السفينة هي سفينة الحياة بمعنى أن الإنسان إذا كان في هذا المقام يكون قلبه حيًا (أَوَمَنْ كان ميتا فأحييناه ، وجعلنا له نورا يمشي به في الناس) الآية . يحييه الله سبحانه وتعالى ويجعل له نورا يمشي به في الناس . هذا عن البحر الأول بحر النور وسفينته الحياة .

أما البحر الثاني فهو (بحر الخدمة) وهو (إياك نعبد) والسفينة (سفينة النجاة) لأنه بالخدمة ينجو الإنسان .

والثالث ، (بحر العجز) وهو (إياك نستعين) وسفينته (الرحمة) .

والرابع (بحر الطلب) وهو (اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين) آمين . وسفينته (المنع والهناء) سفينة المنع من الضلال ، المنع من غضب الله سبحانه وتعالى (غير المغضوب عليهم ولا الضالين) والهناء (اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم) . يطلب الإنسان أن يكون من المُنعم عليهم ولكن لا من المُنعم عليهم الذين ضلّوا وهم النصارى ، أو الذين غضب عليهم المولى عزّ وجلّ وهم اليهود .

وعلى كل حال ، نرجع إلى شرح البيت :

واركبن فلك الحياة أيها السائر إلى الله سبحانه وتعالى ، القاصد محبته سبحانه وتعالى ، اركبن فلك الحياة أي السفينة التي هي عبارة عن الإخلاص لله سبحانه وتعالى والصدق معه والتوكل عليه (ومن يتوكل على الله فهو حسبه) . فإذا كان الإنسان مخلصا لله سبحانه وتعالى صادقا في محبته ، متوكلا عليه فإنه يمده بالأسرار والأنوار ، وعليه أن يستعمل هذه السفينة ، سفينة الحياة التي بها حياة القلوب ، الحياة الروحية التي تتم بالتوكل على الله ، والإعتماد عليه ، دون أن يترك الأسباب أو يهملها ، فالفلاح في فلاحته والتاجر في تجارته ، وكل عامل في عمله ينبغي أن يكون اعتمادهم واتكالهم على الله وليس على تلك الفلاحة أو التجارة أو ذلك العمل ، أما إذا اتكل المرء على عمله أو حرفته فإنه يضيع باعتباره استند إلى عمل نفسه ، ومن يستند إلى عمل نفسه لايجد تأييدا ولا يلقى نصرا من الله سبحانه وتعالى .

فالمولى جلّ وعزّ يعلمنا كيفية الإلتجاء إليه حتى عند استعمالنا الأسباب ، فإذا أردنا استعمال سبب من الأسباب ينبغي أن نستخير الله ، بمعنى أننا نطلبه بقلوبنا وبألسنتنا أن يوفقنا لما فيه خيرنا إذ لايصل الإنسان بنفسه .

واركبن فلك الحياة واسبحن : في بحار النور

فاركبن أيها السائر فلك الحياة الذي هو عبارة عن الإخلاص لله سبحانه وتعالى والتوكل عليه والصدق في كل ذلك ، إذ أن المرء إذا تجرّد من الإخلاص والنيّة فإنه لايدخل الباب ولايلج موضع الرحمة لأنه لم ينوِ ولم يقصد التقرب إلى الله سبحانه وتعالى . فالإنسان مهما عمل وصلى وواظب على الأوراد مثلا ينبغي أن يكون قلبه متعلقا بالله سبحانه وتعالى معتمدا عليه ولا يعتمد على أوراده وصلاته ولا على صيامه

وجميع عباداته .

وإذا كان متصفا بهذه الصفات المتمثلة في الإخلاص والصدق والتوكل على الله سبحانه وتعالى ، ركب في فلك حياة القلوب محمولا محميا ، يحميه المولى عزّ وجلّ من الغرق في الشهوات والمهالك وتيار الدنيا . ويصبح حينئذ سابحا في بحار النور ، يسبح ويجول في بحار النور ، نور الأسماء ، ولذا قلنا هذا أصل الفاتحة « الحمد لله رب العالمين » بوصف هذه الأسماء كلها أنوارا من الله سبحانه وتعالى . فإذا توجه القلب إلى الله مشتغلا بهذه الأسماء التي ذكرها الله سبحانه وتعالى في الفاتحة ، وتمتع بأسرارها وأنوارها فإن النور يسطع عليه ، ويغمره نور الله سبحانه وتعالى .

واركبن فلك الحياة واسبحن   في بحار النور يسطع ما هنا

ماهنا يعني الذات ، هو يجول بجسمه ، وبروحه وقلبه في أسماء الله تعالى وحينئذ يسطع ماهنا أي الجسم ، يصبح جسما نورانيا ولذلك قال تعالى « سيماهم في وجوههم من أثر السجود » الآية . والمقصود بالسجود ، السجود الحسّي والسجود المعنوي ، هذا سجود حسّي ، أما السجود المعنوي فهو خضوع القلب لله سبحانه وتعالى في كل حين ، وفي كل طور ، فهو يتقلب دائما في الخضوع والتذلل لله سبحانه وتعالى .

وهكذا نرى أن من لا إخلاص له لايصل ، ومن لاصدق له كذلك لايصل ، فلابد للمرء من الصدق ، لابد أن يعوّد لسانه على الصدق ، وأن يعوّد قلبه على الصدق ، ومعنى صدق اللسان ألا يقول إلا ماهو حق ، فلا يكذب ، إذ الكذب كما ورد في الحديث الشريف « ولايزال العبد يكذب حتى يكتب عند الله كذابا ، ولايزال العبد يصدق حتى يكتب عند الله صديقا » أو كما قال عليه أفضل الصلوات وأزكى التسليم .

واركبن فلك الحياة ، يعني جُلْ بروحك وبقلبك في عالم الملكوت ، في عالم الأنوار ، في أسماء الله تعالى ، فيسطع ماهنا حينئذ ، يسطع ماهنا الذي هنا ، في هذا الثوب ، وفي هذه الأرض ، وهو الجسم البشري ، يسطع ويظهر عليه النور الربّاني ويصير محمولا من قبل الله سبحانه وتعالى ، تحمله الملائكة ويحمله الله تعالى إليه « إليه يصعد الكلم الطيّب والعمل الصالح يرفعه » الآية .

وافتح القلب بحمد وثنا   تلمح البسط وتقريبا دنا

« افتح » إشارة إلى « الفاتحة » وافتح القلب بحمد الله ، إشارة إلى « الحمد لله ربِّ العالمين » وحمد الله هو ذكر الله سبحانه وتعالى بالصفات الجميلة بمعنى يذكر بقلبه وبلسانه نعم الله « وإن تعدوا نعمة الله لاتحصوها » والحمد هو ذكر الله مع تعظيمه هو ذكر النعم التي تجلى فيها الله سبحانه وتعالى على العباد ، وأمدهم بها ، وهو بذلك يفتح القلب لأن النعم تفتح القلب . فالإنسان يكون مضطربا محتاجا ولكن إذا أمده الله بالنعم تجددت أحواله وتطورت وكذلك الشأن بالنسبة لهذا الفقير الخالي من الأنوار والأسرار ، إذا ما توجه إلى الله سبحانه وتعالى وفتح قلبه بحمده والثناء عليه وذكره بالجميل مع التبجيل والتعظيم فإن النعم حينئذ تتجلى عليه من الله سبحانه فينفتح قلبه ويدخله السرور الذي هو في حدّ ذاته من نعم الله . فالسرور إذن منشؤه حمد الله جلّ جلاله .

فافتح القلب بحمد وثنا   تلمح البسط وتقريبا دنا

إذا فتحت القلب بحمد الله وذكر نعمه لمحت البسط من الله سبحانه وتعالى أي أن الله عزّ وجلّ ينشر ويبسط عليك رحمته ، ويبسط عليك الرزق الحسّي والرزق المعنوي ، وتلمح أيضا وتبصر تقريبا دنا وقرباً من المولى جلّ وعزّ أي تحس بالتقريب من المولى

، من رحمته ورضوانه ، وهكذا يتجلى أن ثمرة الحمد هي وجود نشر البسط ونشر الرحمة . ولذلك ورد في حديث قدسي « إذا قال العبد الحمد لله يقول الله سبحانه وتعالى حمدني عبدي .. » فحامد الله يذكره الله سبحانه وتعالى ويعظمه ويقـــــول « حمدني عبدي » ، « وافتح القلب بحمد وثنا تلمح البسط .. » أي بسط الله سبحانه وتعالى إذ يشرح لك صدرك ويضع عنك وزرك .. « وتقريبا دنا » أي تلمح أيضا التقريب من المولى عزّ و جلّ بمعنى أن قلبك يشعر بأن الله سبحانه وتعالى يقربك إليه ، وكأنك كنت بعيدا فإذا بك ترى التقريب من الله دانيا بسبب حمده وذكر نعمه .

الحمد لله ، واسم الله عند بعض العارفين هو إسم الله الأعظم في تبديل الأحوال وفي تطهير النفس ، وإذا لزمه الإنسان يطهر نفسه ويطهر قلبه من الوساوس ومن كل باب يؤدي إلى شقائه وقالوا عن إسم « الله » انه أعظم الأسماء في تربية النفوس وهو أخصّ الأسماء وأعظمها لأنه دال على الذات الموصوفة بصفات الألوهية كلها ولايسمى به غيره تعالى وهو أعرف المعارف ، وهو المعبود به بحق ولهذا نجـــد أن « لا إله إلا الله » معناها « لامعبود بحق إلا الله » وجميع المعبودات عداه معبودة بالباطل ، أما الله سبحانه وتعالى فهو المعبود بحق ، ومتى لازم الإنسان إسم الله سبحانه وتعالى فإنه تتجلى عليه عظمة الله سبحانه وتعالى ، هذه العظمة التي تذهله عن نفسه ، وعن روحه وأحواله فيصير تائها في إسم الله والحمد لله . « وبذكر الله كن مواظبا » أي واظب على ذكر إسم الله ولازم ذكره سبحانه وتعالى تردع النفس ، يعني تقهر النفس وتقهر الشيطان كذلك ، ذلك أن النفس والشيطان لايقهرهما إلا ذكر الله سبحانه وتعالى ، فإذا ذكر الإنسان إسم الله ولازم ذكره تبدلت أحواله وتطورت وصار يحسّ بالأسرار التي يفيضها الله عليه بسبب ذكره إسمه ، (وبذكر الله) هذه إشارة

إلـــى (الحمد لله) ، وبعدما تكلمنا على الحمد انتقلنا إلى إسم الله سبحانه وتعالى .

وبذكر الله كن مواظبا   تردع النفس ....

أي تقهر النفس لأنك إذا ذكرت الله سبحانه وتعالى تجلّت لك العظمة التي تذهل بها عن نفسك وعن أهلك ومالك وعن جميع الأكوان حتى تصبح تردد (لا إله إلا الله .. لا موجود ولا معبود بحق إلا الله) وتقول (كل شيء هالك إلا وجـــــهه) الآيـــة . و (ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام) الآية . وتغدو ناظرا إلى هذه الدنيا حينئذ بوصفها فانية ، بل ترى العوالم كلها فانية لأن وجودها وجود مستعار لابد أن يزول باعتباره وجودا مستعارا ليترك المجال للوجود الحقيقي .. والوجود الحقيقي لله سبحانه وتعالى .. أما ماعدا وجود الله .. من وجود الحيوانات والجن والملائكة عليهم الصلاة والسلام فهو كله وجود مستعار يعني أعاره المولى عزّ وجلّ لهم ، وأمدّهم بفضله فكانوا أحياء .. ولكن لابد أن يسلبهم هذا الوجود (كل شيء هالك إلا وجهه) الآية يهلك كل شيء إلا وجهه الكريم ، ولهذا يفنى كل شيء عند النفخ في الصور ، وتتبدد السموات ويطوي المولى الأرضين فلا يبقى إلا الله سبحانه وتعالى ومن شاء الله أن يبقى كالروح ، فإنها تبقى لأنها من المستثنيات وكذلك الحور والولدان لايموتون ..

(وبذكر الله كن مواظبا   تردع النفس ...)

إذا واظبت على ذكر الله تقهر النفس ذلك أن النفس لايقهرها قاهر ، بحيث أنك إذا أردت جهادها فإنك لاتستطيع ذلك لأنها عسيرة جدا ، تتقلب فلا تستطيع أن تمسك بها ، إلا إذا رجعت إلى الله سبحانه وتعالى وذكرته وواظبت على ذكر إسمه فإن هذه النفس حينئذ تذل لذكر الله ، وتجد حلاوة ذكره فتتبدل وتغدو صالحة بعد أن كانت طالحة (إلا من تاب وآمن وعمل صالحا فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات) الآية .

فهذه النفس التي كانت في ظلماتها تدخل في عالم الأنوار بسبب ذكر الله سبحانه وتعالى ، فالذي يشغل قلبه بذكر الله سبحانه يندهش لجلاله وعظمته عزّ و جلّ فتذلُّ نفسه ويدخلها سرور من الله بسبب ذلها وتذللها ولذلك كان العبد أقرب من ربّه وهو ساجد ، حين يمرّغ وجهه في التراب (واسجد واقترب) الآية . فهذا التذلل إذن هو الرحمة العظيمة ، هو التقريب من الله سبحانه وتعالى ، فكذلك هذا الذي يسجد السجودَ المعنوي لله جلَّ علاه بذكره ، والمواظبة عليه فإنه يقهر نفسه ويردعها بالعودة إلى الله سبحانه وتعالي ولذلك كان المشائخ يرقون ويربون المريد لأجل هذا المعنى ، لكي تتبدَّل صفاته وتتطوّر أحواله وتتهذّب نفسه بذكر الله ، خصوصا عندما يكون الذكر بيد الشيخ باعتباره عالما بعيوب النفس ، مطلعا على ما يطرأ منها على نفس المريد في حالة سيره وفي حالة ذكره ، فيأمره حينئذ بالإعراب مثلا عمّا يتجلى له من كرامات وما يكشف له من المغيبات فيصير فرحا مسرورا ، ويرغب لو يبقى على تلك الحالة من السرور لكنّ الشيخ لايتركه لأن الترك يؤدي به إلى القطع عن الله سبحانه وتعالى ، فالشيخ يسد عنه هذا الباب ، ويقطع عنه ـ حينئذ ـ تلك الكرامات التي تأتيه حتى يتوجه إلى الله سبحانه وتعالى ويكون مطلوبه ومقصوده هو الله سبحانه وتعالى .. وقد قلنا ، إذن ، بأن النفس لاتقهر إلا بذكر الله (ألا بذكر الله تطمئن القلوب) الآية . وقد قال صلى الله عليه وسلم حين رجع من الجهاد (رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر) والجهاد الأكبر هو جهاد النفس .. فذكر الله تعالى ، على كل حال ، هو القاهر للنفس « ولذكر الله أكبر ، وأقم الصلاة ، إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر » الآية . وذكر الله أفضل من الإستشهاد في سبيل الله ولذلك ورد في الحديث الشريف (ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم وأرفعها في درجتكم وخير لكم من إنفاق

الذهب والفضـــة وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربون أعناقهم ويضربون أعناقكم ، قالوا : بلى يارسول الله ، قال : ذكر الله » أو كما قال صلى الله عليه وسلم . وهكذا يكون ذكر الله أفضل من الجهاد ، وهو أفضل منه لامحالة لأن الجهاد هو عبارة عن محاربة العدو بالجوارح ، وهو جهاد خارجي أي خارج عن الذات ، إذ يكون العدو مثلا نائما فتكون أنت في راحة متوقفا عن القتال ، أما هذا الجهاد ، جهاد النفس فإنه دائما معك سواء أكنت نائما أم مستيقظا ، فجهاد النفس إذن هو الجهاد الأكبر ولذلك كان ذكر الله سبحانه وتعالى أفضل من الشهادة في سبيل الله .

وبذكر الله كن مواظبا   تردع النفس وتطرد وسنا

فهذا الجهاد به قهر للنفس وإذلال لها ، ولكن قتالك الكفار لايكون فيه ردع للنفس ، بل ربما يقاتل أحدهم الكفار وهو منافق ، يقاتل من أجل عصبية أو غضبا مثلا ، ولذلك يُروى عن شخص في وقت النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه كان يجاهد الكفار بشكل أثار إعجاب الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ فأخبروا به النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال لهم إنه من أهل النار والعياذ بالله ، فتعجب الصحابة رضوان الله عليهم كيف يكون من أهل النار من يقاتل الكفار بتلك الشجاعة ، وهذا مانعنيه بالجهاد الخارجي الذي يغاير ويختلف عن جهاد القلوب ، وحدث أن جرح في المعركة جرحا خفيفا فجزع جزعا عظيما وقال كلمة الكفر والعياذ بالله ، وقتل نفسه ، فمات كافرا ، فهذا الشخص لم يكن يقاتل في سبيل الله وهو ما أدى به إلى الإنتحار بسبب الجزع من جرح أصابه ، وعندئذ قال لهم النبي صلى الله عليه وسلم ألم أقل لكم إنه من أهل النار أو إني قلت لكم أو كما ورد في الحديث الشريف . قلت هو من أهل النار ، هذا بخلاف جهاد النفس ، جهاد القلوب الذي يُمدّ القلب في كل وقت بحياة جديدة ، ولذلك

يقولون « إذا خلا القلب من الحكمة ثلاثة أيام مات » ، أي يصير صاحبه كأنه من الخشب المسنّدة ، ويصير كأنه حيوان يلغي معنى الإنسانية التي أودعها الله فيه ، واستخلفه « وعلم آدم الأسماء كلها ، ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين ، قالوا سبحانك لاعلم لنا إلا ماعلمتنا إنك أنت العليم الحكيم ، قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم ، فلما أنبأهم قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ماتبدون وما تكتمون » الآية . ثم أمرهم بالسجود لسيدنا آدم ـ عليه الصلاة والسلام ـ لأن فيه تلك الأسماء الإلهية وفيه تلك الحكمة الربّانية وتلك العظمة وذلك السرّ الذي لايطلع عليه أحد ولايستطيع إبليس أن يطلع عليه وكذلك الملائكة ـ عليهم السلام ـ فأنبأهم سيدنا آدم ـ عليه الصلاة والسلام ـ وكان عالما بأسرار تلك الأسماء ، وبأنوارها وبموازينها لأن لكل كلمة ميزانا وحدّاً وجهة معينة مثلا ، ولهذا استحق الخلافة أي أن المولى سبحانه وتعالى قد خلقه للخلافة فعلّمه الأسماء وبسببه كشف إبليس لعنه الله إذ كان يتعبد مع الملائكة آلافا من السنين حتى تعجب الملائكة عليهم السلام من عبادته لأنه فاقهم فيها . بينما هو في الحقيقة خبيث من أول الأمر ولم يطلع عليه الملائكة ولكن لما خلق الله سيدنا آدم ـ عليه الصلاة والسلام ـ ونفخ فيه الروح وعلمه الأسماء وأمرهم بالسجود له كان عليه الصلاة والسلام كالمرآة لإبليس لعنه الله ، فحينئذ ظهر إبليس وظهر كِبرُه وقال (أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين) رالآية . فادعى بدون أدب أنه خير من سيدنا آدم عليه الصلاة والسلام فطرده المولى جلّ وعزّ واستوجب اللعنة العظيمة . ونحن لا نقول بأن مجرد كبر ابليس هو الذي أخلده في النار لأننا نرى بعض المتكبرين مثلا في النار ولكنهم لايخلدون فيها بوصفهم مؤمنين إذا عُذّبوا لا يخلدون في النار ، فكيف خُلّد إبليس إذن في النار ؟ .

السرّ في ذلك أنه خُلد بسبب اعتراضه على الله سبحانه وتعالى . فكأنه حينما قال (أنا خيرٌ منه خلقتني من نار وخلقته من طين) . فكيف أسجد له ؟ فكأنه يقول لله سبحانه وتعالى (أنت لاتحكم بالحق) ونسب إليه والعياذ بالله الجور تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيرا ، وبذلك صار كافرا واستحق الخلود في جهنم . وقد نسب إلى المولى جلّ علاه الجور وهو الملك يفعل في مُلكه ما يشاء ، يُفضل من خلقه هذا على ذاك فمنهم من جعلهم أنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ ومنهم من جعلهم أولياء ـ رضوان الله عليهم ـ ومنهم من جعلهم كفرة والعياذ بالله .. إلخ .. .

ويذكر الله كن مواظبا　　　　تردع النفس وتطرد وسنا

تقهر النفس بذكر الله سبحانه وتعالى وتروضها به فتدخل عليها السرور والرحمة من الله سبحانه وتعالى . وتطرد وسنا ، تطرد النوم وتطرد الغفلة أي أنك إذا كنت غير ذاكر لله سبحانه وتعالى فكأنك نائم وأنت غافل على كل حال ولكنك بذكر الله تستيقظ من النوم وتطرد الغفلة فتكون حينئذ مستيقظا أي تشعر روحك بحياة جديدة ، لذيذة طيبة وتشعر بإكرام الله سبحانه وتعالى الذي يمدك حينئذ بأسرار عظيمة تتمتع بها .

ثم تبدو من جلال هيبته　　　　تذهل اللبّ وتنسى ماجنى

ذكرنا أن المواظبة على إسم الله سبحانه وتعالى تقهر النفس وتطرد الغفلة وتطرد الشيطان كذلك لعنه الله ، وذكرنا ثمرةً من ثمرات ذكر الله سبحانه وتعالى متمثلة فيما يطرأ على قلب الذاكر من استشعار جلال الله والإحساس بعظمته ـ سبحانه وتعالى ـ (ثم تبدو من جلالٍ هيبةٌ) ثم تظهر من العظمة هيبةُ الله تعالى ويحدث هذا عندما تتجلى العظمة في قلب الذاكر بحيث لا يبقى معها شيء ولا يبقى معها لا مال ولا بنون ولا أسباب بل يبقى فقط وجه ربك ذي الجلال والإكرام ، فهذه

العظمة تطرد الغفلة وتطرد النوم وتبدو منها هيبة تجعل قلب الذاكر خائفا من المولى جلَّ وعزَّ معظما له ، وهذا الخوف ليس خوف عقاب وإنما هو خوف إجلال وتعظيم ولذلك كان قلب النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ينزف من خوف الله سبحانه وتعالى ، ولابد أن تطرأ على قلب العارف ، إذا كان ذاكرا لله ، هذه الهيبة المستشعرة لعظمة الله ـ سبحانه وتعالى ـ هذه الهيبة التي تحل بالقلب فتذهل اللبَّ وتنسيه ماجنى وما كسب من الأعمال ومن الأحوال فينسى بذلك كل أحواله وأعماله وجميع ماتعلق به ويصير مندهشا ، ذاهلا ، متحيرا من تلك العظمة .

ثم تبدو من جلال هيبة تذهل اللبَّ وتنسى ماجنى

تذهل اللب وتذهل العقل فيصير متحيرا من فرط هذه الهيبة الإلهية وكيف لايهاب والمولى جلَّ وعزَّ ، بيده ملكوت السموات والأرض ، بيده ملك كل شيء ، بيده قلب الإنسان ، فقلب العارف بيد الله ـ سبحانه وتعالى ـ يقلبه كيف يشاء بل القلوب كلها يقلبها الله سبحانه وتعالى كيف يشاء ، ولذلك تطرأ على العارف ـ إذا شعر بهذا المقام ، مقام عظمة الله ـ سبحانه وتعالى ـ هيبةٌ وخوفٌ من الله جلَّ علاه ، خوف منشؤه تعظيم الله ، فليس خوف عقاب كما قلنا ، بل هو خوف عظمة الله ـ سبحانه وتعالى ـ فيذهل عن نفسه ، وعن أعماله وعن جميع ماتعلق به ، ولذلك قلنا (تذهل اللب وتنسى من جنى) .

ويلطف ريح أنس نشرت تملأ الأكوان طيبا وسنا

إن هذا البيت يُدخل الفرح والإنشراح على قلب العارف (ويلطف ريح أنس نشرت) ، فإذا كان هذا العارف خائفا من الله ـ سبحانه وتعالى ـ بسبب تجلي عظمته على قلبه ، ذاهلا عن حسِّه وعن أحواله ، وماله ، وعن جميع ماتعلق به مفوضا أمـــره

إلى الله سبحانه وتعالى ، فإن المولى عز وجل يمده بريح أنسٍ (ويلطف ريح أنسٍ) بلطافة أو بمعنىً خفي ، يمده الله بهذه الريح الطيبة التي تطرأ على القلب ، وتنتشر عليه وعلى جميع الأكوان ، فيصير في أنسٍ حين تطرأ عليه هذه الريح من الجمال الإلهي إذ يمده الله بلطفٍ وبرقة وبمعنى خفي وبسر من أسراره الخفيّة بهذه الريح ، ريح الأنس ، وتارة هذه الريح يُحس بها القلب بينما يكون لها أثر في الشم تارة أخرى ، هذه الريح تنتشر على العارف وعلى الكون كله ، ولهذا قلنا (تملأ الأكوان) أي تملأ السموات والأراضي وجميع المخلوقات بوصفها سرا من أسرار الله - سبحانه وتعالى - خفيًا عن عباده ، ولكنه يُصبح ساريا في جميع المخلوقات (وإن من شيء إلا يسبح بحمده) الآية . وإن من شيء يعني كل شيء يسبح لله - سبحانه وتعالى - (ولله يسجد من في السموات والأرض طوعاً و كرهاً) الآية . فكل المخلوقات في الحقيقة تسجد للـــــــه - سبحانه وتعالى - فهذا يسجد له طوعا واختيارا ، وهؤلاء يسجدون له كرهاً كالكفار والشياطين ، إذ يلتجئون إليه عند الشدائد .

(حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريحٌ عاصفةٌ فجاءهم الموت من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين) الآية . يصير أهل هذه الشدة ملتجئين إلى الله سبحانه وتعالى وكذلك أهل النار عندما يكونون في جهنم والعياذ بالله يعترفون بالعبودية للـــــــه - سبحانه وتعالى - ويقولون ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ، ولكن هذا السجود سجود قهري لا يغنيهم والمولى عز وجل يقول (ولو ردوا لعادوا إلى مانهوا عنه) الآية . أي لو ردوا إلى الحياة لعادوا لما نهوا عنه ، لعادوا إلى المعاصي وإلى الكفر ولكنهم يسجدون لله بالقهر ومن هنا يتبين أن كل شيء ساجد لله سبحانه وتعالى إما طوعا أو كرها .

ويلطف ريح أنس نشرت … تملا الأكوان طيبا وسنا

هذه الريح التي تنشر على قلب العارف المتوجه إلى الله ـ سبحانه وتعالى ـ مُخلصا له العمل ، هذه الريح تحمله فتنقله من العالم السفلي إلى العالم العُلوي بحيث يصير مع الملائكة الكرام ـ عليهم الصلاة والسلام ـ وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام ـ هذه الريح الطيبة تتجلى بعد العظمة وبعد الخوف من الله ـ سبحانه وتعالى ـ يتجلّى هذا الجمال الإلهي الذي يملأ الأكوان طيباً وسناً ، أي ريحا طيبة ونوراً (الله نور السموات والأرض) يُشاهد قلب العارف الأنوار سارية في جميع الكائنات لأنه ماراى شيئاً إلا رأى الله قبله وبعده في جميع الأطوار ، يرى الله ـ سبحانه وتعالى ـ محيطا بجميع الأشياء لأن نوره يحيط بكافة الأشياء إلى درجة اضمحلالها وفنائها ولا يبقى إلا وجه ربك ذو الجلال والإكرام (ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام) الآية تفنى في قلب العارف حينئذ كل الموجودات ويُحس بفناء الدنيا قبل موته ، والعارف يكون دائما ميتا أي مقطوع القلب من العلائق التي تقطعه عن الله ـ سبحانه وتعالى ـ ومع ذلك فهو حيٌ ، يحيا حياة طيبة (من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة) الآية . يحييه الله ، ويحيي قلبه ولكن بعد أن أمات العلائق ، وقطع نفسه عن الشهوات ، وليس المراد من هذا أنه لا يتناول المباح ، فإذا كان مثلا تاجرا أو صانعا ينبغي ألا تشغله تجارته أو صناعته عن ذكر الله (يا أيها الذين آمنوا لاتلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون) الآية . فالمولى عزّ وجلّ ينهانا عن أن تلهينا الأموال والأولاد عن ذكره ، ذلك أن من تشغله الأموال والأولاد عن ذكر الله يكون ـ والعياذ بالله ـ من الخاسرين الذين يخسرون الدنيا والآخرة . يخسر الدنيا لأن قلبه لايتلذّذ بمعرفة الله سبحانه وتعالى ولايجد الريح الطيبة التي

ينشرها الله سبحـــــانه وتعالى على الأكوان ، لايجدها هذا القلب الذي هو ميت بالشهوات ، أما العارف المتوجّه إلى الله سبحانه وتعالى فيموت بين يدي الله يعني يتذلل له حتى يصير كأنه ميت بين يدي الله ، يقطع العلائق الدنياوية والشهوات وإن كان يتناول المباحات ولكن يقطع تلك العلائق التي تعيقه عن محبة الله سبحانه وتعالى ، والتي تقطع قلبه عن التوجه إلى الله سبحانه وتعالى ، فهذا العارف يموت ميتة طيبة ويحيا حياة طيبة ، فهو ميت عن الشهوات ومن العوائق التي تقطعه ومن مكائد النفس ومن مكائد الشيطان لأن قلبه مشغول بالله سبحانه وتعالى مشغوف بحبّه فلا يشغله عنه شاغل ، أما المعرض عن ذكر الله تعالى فإنّ الأموال تلهيه وكذا علائق الدنيا حتى تقطعه عن الله سبحانه وتعالى ، وربما تؤدي به إلى الكفر والعياذ بالله . ولذلك قال المولى عزّ وجلّ (ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون) يعني من ألهته الأموال والأولاد وجميع العلائق الدنياوية عن ذكر الله فهو من الخاسرين في الدنيا وفي الآخرة ، في الدنيا بمعنى لايذوق حلاوة المحبة ، ولايذوق حلاوة الإيمان . قال صلى الله عليه وسلم (ثلاث من كنّ فيه وجد حلاوة الإيمان) أي ثلاث من كنّ فيه وجد حلاوة الإيمان ، يعني ذاق حلاوة الإيمان ، الأولى قال (أن يكون الله ورسوله أحبّ إليه مما سواهما) بمعنى يكون قلبه دائما مفعما بحب الله ورسوله صلى الله عليه وسلم لأن الله سبحانه وتعالى هو الذي بعثه وأرسله رحمة للعالمين ، فهذا فضل من الله عزّ وجلّ ، فالرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم قد عظّمه المولى جلّ وعزّ ، ومن ثمّة وجب علينا أن نعظمه ونرعى حرمته في جميع الأطوار وفي جميع الأحوال ، كيف لا والمولى جلّ وعزّ قرن إسمه بإسمه ، ولا تتم الشهادة إلا بذكر النبي صلى الله عليه وسلم .

قلنا هذا الذي ألهته الأموال والأولاد يخسر محبّة الله سبحانه وتعالى في الدنيا

ويخسر النعيم الدائم في الآخرة ، يخسر في الدنيا ويخسر النعيم الدائم في الآخرة ، يخسر محبَّة الله ، وهي قلنا من علامات الإيمان (ثلاث من كنَّ فيه وجد حلاوة الإيمان) أي ذاق حلاوة الإيمان ، وحينئذ فإن من لم يذق حلاوة الإيمان يكون في خسارة وخسران مبين ، وينبغي عليه أن يجاهد نفسه حتى تحسّ بحلاوة الإيمان ، وبحلاوة الرجوع إلى الله سبحانه وتعالى ، قال النبي صلى الله عليه وسلم (ثلاث من كنَّ فيه وجد حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما ..) أي يعظم الله سبحانه وتعالى ويحبه في جميع الأطوار والأحوال لايشغله عن حبِّه شيء ، ولا تشغله عن حبِّه جميع المحبوبات ، تسقط جميع المحبوبات عند حبِّ الله سبحانه وتعالى ، وكذلك حب الرسول صلى الله عليه وسلم لأن حبَّ الرسول صلى الله عليه وسلم من حبِّ الله ومن يطع الرسول فقد أطاع الله ومن أحبه فقد أحبَّ الله ، وكذلك كل مظهر من مظاهر الكرامة عند الله سبحانه وتعالى كالأولياء رضوان الله عليهم ، إذ يمدهم الله سبحانه وتعالى بالأسرار والأنوار فمن أحبهم فقد أحبَّ الله فالمولى جلَّ وعزَّ يقول (ألا إن أولياء الله لاخوف عليهم ولاهم يحزنون الذين آمنوا وكانوا يتقون لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة) فهم يتمتعون في الدنيا بمحبة الله سبحانه وتعالى وبمعرفته ويتمتعون بالكشوفات التي يكشفها لهم الله سبحانه وتعالى وبالكرامات التي تتجلى عليهم . إذ يكرمهم ويفيض عليهم المعارف والحكم والأسرار حتى يكونوا في جميع الأطوار متمتعين بأنسه سبحانه وتعالى وبحبِّه . أي يكون الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما ، والثانية أن يحب المرء لا يحبه إلا لله ، الحديث الشريف (ثلاث من كنَّ فيه وجد حلاوة الإيمان ، أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار) أو كما قال عليه

الصلاة والسلام . وأن يحب المرء يعني يحب الشخص لا لجاه ولا لمال ولا لشيء من الدنيا وإنما يحبه لله لأنه ذاكر الله ، لأنه عابد الله لأنه محب الله ، فهو يحب من يذكر الله سبحانه وتعالى ، يحب من يمجده ، ويكثر من ذكره لأن من أحب شيئا أكثر من ذكره ، فهذا الذي يذكر الله سبحانه وتعالى يجب أن نحبه ، وأن يحب المرء لايحبه إلا لله ، لايحبه لغرض وإنما يحبه لله ولذلك.ورد أن الشخص الزائر إذا أتى شخصا لله سبحانه وتعالى يرسل الله إليه ثلاثا من الملائكة عليهم الصلاة والسلام وعلى نبينا أفضل الصلاة وأزكى التسليم فيقولون له (هل عندك من نعمة تردها ؟ أي تستحقها عند هذا الشخص الذي تزوره ، فيقول لا ليس لغرض أو شيء وإنما أحبّه في الله فيقول له أحدهم إن الله بعثني أن أبشرك بأنه يحبك كما أحببته لأنك أحببته في الله سبحانه وتعالى ، أو كما ورد .

والثالثة أن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار ، إذ لمّا يلقى حلاوة الإيمان يتبيّن له أن الكفر وعمل الكفار وتعظيم الكفّار مثلا والرجوع إلى ذلك يراه كأنه نار ويكره أن يرجع إلى الكفر والجحود والعياذ بالله كما يكره أن يقذف به في النار . وهكذا يصير له الكفر نارا ، والكفار نيران ، يفر منهم بقلبه وإن كان مثلا تارة يعاملهم ، ولكن قلبه لا يركن إليهم (ولا تركنوا إلى الذين كفروا فتمسكم النار) الآية ،لا تركنوا للظالمين ، ولا تركنوا للجاحدين ، هذا النفور من الكفر والكفار والجاحدين علامة من علامات محبّة الله سبحانه وتعالى .

قلنا (ويلطف ريح أنسٍ نُشرت) أي نشرت هذه الريح الطيبة من الله سبحانه وتعالى ، من الجمال الإلهي ، نشرت على القلوب ، لتملأ الأكوان ، ويشاهد قلب العارف بأن الأكوان كلها صارت أسراراً وأنواراً من الله سبحانه وتعالى وصارت ريحا طيبة

تملأ الأكوان طيبا يعني رائحة طيبة ، يشم هذه الرائحة الطيبة بقلبه ، وتارة يشمها بأنفه وذلك من فضل الله سبحانه وتعالى .

ويتجلى المولى بالجمال الإلهي ، أو بالنعيم الخفي ، هذا النعيم الخفي الذي لايصل إليه البشر بحيلة ولا بآلة ولكنه يكون فضلا من الله سبحانه وتعالى ، للخضوع والتذلل بين يديه ، وللسجود المعنوي بين يديه ، يتجلى لهذا العارف الذي يكون قلبه دائما ساجدا لله ، وقد ورد في الحديث كما ذكرنا أن أقرب مايكون العبد من ربه وهو ساجد ، يعني أقرب الأحوال التي يكون فيها العبد قريبا من الله سبحانه وتعالى هي الحال التي يكون فيها ساجدا ولكن هذا إشارة إلى أن سجوده ببدنه مثلا هو شعار للسجود القلبي لأن المقصود هو السجود القلبي ، أما السجود البدني المجرّد من السجود القلبي المعنوي فإنه لايفيد شيئا ، ألم تر إلى أن المنافقين كانوا يسجدون في عهد النبي صلى الله عليه وسلم ولكن سجودهم ذلك لم يفدهم شيئا لأنهم في الدرك الأسفل من النار ، ولهذا قلنا المقصود هو السجود القلبي ذلك أن السجود الحسّي إنما هو رمز للسجود المعنوي الذي هو سُجود القلب وخضوعه بين يدي الله سبحانه وتعالى حتى يكون ـ كما ذكرنا آنفا ـ ميتا في جميع الأحوال ولكنه ميت عن علائق الدنيا وعوارضها وعن الشهوات والشبهات ، بينما هو في الحقيقة ، وفي تلك الحال ، حيٌ بالله (أوَ مَن كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مثلهم في الظلمات ليسوا بخارجين منها ..) وإن كانت الآية تشمل غير هذا الوجه ، ولكن فيها إشارة إلى هذا الوجه (أو من كان ميتا فأحييناه) فأحييناه بنور الإيمان ، وبنور المعرفة ، وهو نور لا ينال بحيلة ولا بتفكير ولا بآلة ولذلك لم يستطع الكفّار أن ينالوا لذة من هذه اللذائذ وكذلك السلوك ، ولذلك قال بعض العارفين (نحن في لذة لو علم بها الملوك

لجلدونا عليها بالسيوف) يعني لقاتلونا عليها بالسيوف ، هذه اللذة هي لذة معرفة الله سبحانه وتعالى . بينما انصرف انشغالهم هم إلى أموالهم وأولادهم ، وهي حجب تفتن صاحبها ، وتقطعه عن الله سبحانه وتعالى ، فلهذا لايجد حلاوة الإيمان ولايلقى حلاوة المعرفة .

ويلطف ريح أنس نشرت ... تملأ الأكوان طيبا وسنا

ويلطف ريح أنس يعني ريح أنس من الله سبحانه وتعالى ، تدخل على العارف ولو كان خاليا ، ولو كان في ظلمات الليل ، ولو كان وحده فتدخل عليه هذه الريح الطيبة ويجدها قلبه ، ويجد معها وبها أنساً عظيما من المولى جلَّ وعزَّ ، بحيث تصير الأكوان كلها أنساً بالنسبة لهذا العارف ولهذا ، لما وجد بعضهم الإمام الغزالي رضي الله عنه في بادية بمرقعة وعكاز ، وقال له : ياشيخ العلم والتدريس أولى لك من هذا فقال رضي الله عنه :

هيهات ! لما طلع فجر السعادة في فلك الإرادة ، وأشرقت مصابيح الوصول على منابر الأصول ، وتبيَّن الحقُّ لذوي البصائر ، فكلٌّ لما طبع عليه صائر ، وأنشد :

تركت هوى ليلى ولبنى بمعزل ... وصرت إلى مصحوب أوّل منزل

ونادتنيَ الأكوان مهلا فهـذه : ... منازل من تهوى رويدك فانزل

وحرّست في دار الندى بمذلة ... قلوب ذوي التحقيق عنها بمعزل

غزلت لهم غزلا رقيقاً فلم أجد ... لغزليَ نسّاجا فكسّرت مغزلي

والشاهد في قوله :

ونادتني الأكوان مهلا فهذه ... منازل من تهوى رويدك فانزل

هذه منازل الحق سبحانه وتعالى ، فالكون كله بيت الله تعالى ، ويصير كله كعبة

لما يتوجه القلب إلى الله سبحانه وتعالى ، ويصير ميتا عن الشهوات وعن لذائذ الدنيا ، منقطعا لله سبحانه وتعالى ، متجرّدا له ، فيحيا ، حينئذ ، حياة طيبة ، ويجد الكون كله بمثابة بيت الله ، يجد فيه الأنس من الله ، والجمال الإلهي ، ويصير متمتعا بتلك الحلاوة حيثما توجه ، سواء توجه إلى القبلة أو إلى الظهرة أو توجه إلى اليمين أو إلى الشمال ، وسواء أكان نائما أم مستيقظا ، يكون مستأنسا بالله سبحانه وتعالى في جميع الأطوار ، ذلك أن الأكوان كلها تصير مغمورة بهذه الريح التي تملؤها طيبا ، يعني رائحة طيبة وسناً ونوراً ويشاهد النور ، ويشاهد الجمال الإلهي منتشراً على الأكوان (الله نور السموات والأرض) ، ويصير قلبه مشاهدا لهذا النور ، متمتعا بأنس الله سبحانه وتعالى ، ومتلذذا بالرائحة الطيبة .

يانسيم ساعة مرّت بنا   في جمال القرب أنساً وهنا

لما تكلمنا عن الأنس بالله جلّ وعزّ ، المتأتي من ذكر الله وعلى امتلاء القلب بمحبة الله سبحانه وتعالى باعتبارها ثمرة ذكر الله ، ذكرنا فضل الله الذي يتجلى على العارفين استنادا إلى ماطرأ علينا من تلك الأحوال ، في حالة ذكر الله سبحانه وتعالى ، تأييدا لمقام الأنس سبحانه وتعالى ، قلنا (يانسيم ساعة مرّت بنا) لقد حصل لنا في ذلك الوقت ، وقت اشتغال القلب بذكر الله تعالى ، أنس في الليل المظلم حتى كأننا نشمّ ذلك الأنس بالله سبحانه وتعالى . يانسيم ساعة ، وبقيت تلك الساعة التي حصل فيها الأنس ، أنس مخالف للمألوف ، مخالف للعادة ، إنه أنس الله سبحانه وتعالى .

يانسيم ساعة مرت بنا   في جمال القرب ....

هذا القرب يتمّ أثناء اشتغال القلب بالله سبحانه وتعالى ، وامتلائه محبّة له ، وسرورا به ، فحينئذ يحس بقربه من الله عزّ وجلّ ، وهو قريب من عباده (وإذا سألك

عبادي عنّي ، فإني قريب أجيب دعوة الداعي إذا دعاني } ولكنَّ الإنسان هو البعيد ، تبعده الحجب ، وتبعده الشهوات ، والغفلات ، أمَّا العارف إذا كان سائراً إلى الله سبحانه وتعالى ، فإنه يجاهد تلك العوائق ، وتلك القواطع ، وتلك الغفلات حتى ينتبه قلبه ، ويتأنس بالله عزَّ وجلَّ فيمتلىء بمحبة الله ويجد حينئذ أنساً عظيماً من الله سبحانه وتعالى ، ونحن قلنا (يانسيم ساعة مرَّت بنا) إشارة إلى هذه الحالة ، التي طرأت وذلك من فضل الله .

يانسيم ساعة مرت بنا ، بقيت آثار هذه الساعة في قلوبنا إلى الآن ، إذا تذكرناها تذكرنا ذلك الجمال الإلهي ، وذلك الأنس الإلهي الذي يغيِّب النفس عن جميع المألوفات ، يعني يترك جميع المألوفات ، وجميع المشتهيات عند التمتع بذلك الأنس الذي لايبقى معه شيء إلا الجمال الإلهي الذي يتجلى على القلب فلا يجد مثله أبداً ، يجد هذا الأنس كأنه يرفعه في السماء ، يحمله إلى العلو برحمة الله سبحانه وتعالى .
يانسيم ساعة مرت بنا ، هذا النسيم وجده القلب في ذلك الوقت ، حين كان مستغرقاً في محبة الله سبحانه وتعالى ، تائهاً فيه ، وقد كان في ليلة مظلمة ، وكان خالياً ، بعيداً عن الناس ، ولم تكن ثمَّة حركة من إنسان أو حيوان ، بل ما كان إلا السكون والإطمئنان بالله سبحانه وتعالى .

هذه الساعة ، لها نسيم ، لها رائحة خفيَّة رقيقة ، وهذا هو المعبَّر عنه بالنسيم ، ولكن مع طيب رائحة ، هذه الساعة صارت في الحقيقة في حياة جديدة ، فتحت أبواباً كثيرة بذلك الأنس الإلهي ، وبذلك الهناء ، فالعارف كلما ترقى إلى مقام انفتحت له أبواب من فضل الله سبحانه وتعالى ، يجد فيها ما لم يكن يجده من قبل ، فحين تجلي المولى عزَّ وجلَّ بالأنس ، وبالإمداد حصل التأنيس بالله سبحانه وتعالى وحصل الهناء

به سبحانه وتعالى ، وانفتحت حينئذ للقلب أبواب كثيرة من رحمة الله ، وصار الإنسان محمولا بذلك الأنس وبذلك الهناء ، فرحاً مسروراً بفضل الله سبحانه وتعالى .

واذكر الرب الجليل واثبتن   تُكسَ حلة الرقي والغنى

هذا ماذكرناه قبل ، هو كله في إسم الجلالة الذي قلنا عنه (ويذكر الله كن مواظبا) أشرنا إلى ملازمة ذكر اسم الله سبحانه وتعالى ، إذ بذكره تنشأ الحيرة ، وتنشأ الهيبة ، وينشأ السرور ، وهي كلها حالات تأتي نتيجة الإستغراق في ذكر إسم الجلالة (الله) سبحانه وتعالى ، وهذا البيت :

بانسيم ساعة مرت   في جمال القرب أنساً وهنا

هو من الأسرار التابعة لذكر الله سبحانه وتعالى ، وقد قلنا بأنه الإسم الأعظم على ما قيل ، بحسب تهذيب النفوس وتربيتها .

واذكر الربَّ الجليل . الحمد لله رب العالمين ، ونحن قد قسمنا الفاتحة ، كما قلنا إلى أربعة أقسام ، بحر النور وهو مايحتوي على أسماء الله سبحانه وتعالى ، وقد تكلمنا عن أحد هذه الأسماء وهو اسم الجلالة الله ، والآن نتكلم على الربِّ ، والرب في اللغة يطلق على السيِّد ويطلق على المصلح وله معانٍ كثيرة ، والذاكر للربِّ سبحانه وتعالى لابدَّ أن يجد نفسه عبداً لسيِّده ، واذكر الرب الجليل ، فالرب هو السيِّد وهو المصلح الذي يصلح قلبك ، ويصلح أحوالك وأمورك كلها ، واذكر الرب الجليل ، العظيم ، اذكره ليس بلسانك فقط ، بل ينبغي أن يكون قلبك دائماً متعلقاً به ، تقول الربُّ يعني هو الخالق والمربي وهو المصلح وهو المرشد ، فالمولى عزَّ وجلَّ هو المصلح لقلوبنا وبنفوسنا ولدنيانا ولآخرتنا وهو السيد على جميع المخلوقات ، حينئذ يشعر قلب العارف بأن جميع المخلوقات مفتقرة إلى الله سبحانه وتعالى يصلحها ويربيها ويرقيها في

المقامات حتى تبلغ درجة الكمال .

واذكر الرب الجليل ، الرب العظيم ، إشارة إلى رب العالمين (الحمد لله رب العالمين) ربّ جميع الموجودات ، جميع المخلوقات ، فهو السيد وجميعها عبيد له ، وهو الذي يرقيها من حالة إلى أخرى .

واذكر الرب الجليل واثبت ، اثبت عند ذكر رب العالمين ، ربّ جميع المخلوقات وسيدها ومصلحها ومربيها ، وهو الذي يدفع عنها الفساد والأذى ويرقيها إلى مراتب الكمال ، واذكر الربّ الجليل ، أي العظيم ، فإذا ذكرت الربّ يلزمك أن تعظمه وأن تعتقد بجلالته وعظمته .

قد يقال في اللغة هذا رب الدار ، وهذا ربّ كذا وكذا ، ولكن هذا ليس ربّاً جليلا وليس ربّاً عظيما وإنما هو صاحب ذلك الشيء فقط . أما المولى عزّ و جلّ فهو الرب الحقيقي ، أي السيد الكامل ، أي المصلح للنفوس ، المربّي والمرقّي لها ، كل المخلوقات تحتاج إليه سبحانه وتعالى (يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله ، والله هو الغني الحميد) الآية، واذكر الربّ الجليل ، إذا ذكرت رب العالمين وعرفت بأنه ربّ العالمين ، والعالمين بمعنى جميع المخلوقات (الحمد لله رب العالمين) ربّ جميع المخلوقات ، فجميع المخلوقات كلها مربوبة ومقهورة من الله سبحانه وتعالى ، فالربّ هو الذي يرقيها ، وهو الذي يصلحها ويوجهها .

واذكر الرب الجليل واثبت ، اثبت في هذا المقام ، أي مقام التعظيم ، مقام تعظيم وإجلال الربّ الجليل ، واعلم بأنك تحتاج إلى تربيته ، تلك التربية التي تربي نفسك ، وتطهر قلبك من الأدناس ومن الأمراض حتى تتجلى فيها الصفة ، صفة الملكية وتصير كأنك تنظر بنور الله ، إذ المؤمن ينظر بنور الله . ولكن هذه الترقية هي من الله سبحانه

وتعالى وبفضل منه ، ولهذا ينبغي أن يكون اعتماد السائر إلى الله سبحانه وتعالى على الله الذي يربّي قلبه ويصلحه حتى تتم له الفتوحات الجليلة العظيمة .

واذكر الرب الجليل ، اذكره بقلبك واعتقد عظمته ، واعتقد أنه السيِّد الكامل ، وأنه المصلح للنفوس والمربي لها والمرقي لها من مقام إلى مقام حتى تبلغ أعلى رتبة ، وهذا فضل من الله سبحانه وتعالى .

واثبتن ، إياك أن تزوغ عن هذا المقام ، يعني مقام التعظيم للرب ، ومقام الإعتقاد بأن الله هو ربُّ العالمين وخالقها ومصلحها ومربيها وسيدها ومرقيها إلى أعلى المقامات واذكر الرب الجليل واثبتن تُكس حلة الرقي لأن الرب يهذب نفسك ويصلح قلبك ، وعلى هذا فإنك إذا ثبتَّ في هذا المقام ، وثبتَ في تعظيم الله سبحانه وتعالى ، بالإعتقاد بأنه الرب الحقيقي ومربِّي جميع العالمين ، حتى الكافر مثلا يربيه الله سبحانه وتعالى بأن يفتح له أبواب التنعم بنعيم الدنيا ، فيرى حينئذ بأن ذلك فضل من الله خصّه به ، فقلبه وإن لم يعترف بالله سبحانه وتعالى إلا أن حاله ينبىء بتعظيم الله عزّ وجلّ ، ولكن العارف في رتبة أخرى ولذلك يذكر الرب الجليل ويثبت في هذا الذكر معظما الله سبحانه وتعالى ومستشعرا أنه عبده وأن الله هو مرقِّيه في جميع الأطوار ، فلا يتكل على نفسه ، ولا يتكل على حيلة ولا على الخلائق بل يتوجه إلى الله سبحانه وتعالـــى (ومن يتوكل على الله فهو حسبه) الآية .

واذكر الرب الجليل واثبتن ، تُكس حلة الرقي ..

تكس حلة الرقي ، ولباس الرقي ، الذي هو لباس الكمال (ولباس التقوى ذلك خير) الآية ، تكس لباس الرقي ، ولباس الطاعة والعبودية ، ولباس القرب من الله سبحانه وتعالى ولباس المعرفة . تكس حينئذ حلة الرقي في الدرجات لأن الربَّ سبحانه وتعالى

هو الذي يتولى تربيتك وترقيتك ، وهو الذي يدفع عنك الشياطين وهو الذي يطرد عنك الغفلة ويطرد عنك كل قاطع يقطعك عن مراتب الكمال .

فأنت إذا ثبتّ في مقام التعظيم لله سبحانه وتعالى فإن قلبك يصير قطرة من قطرات البحر لأن جميع الكائنات والسموات والأراضين وجميع من في السموات والأراضي مربوب لله ومقهور بالله ، فيتدرج من حالة إلى حالة ، من حالة غفلة إلى حالة يقظة ، ومن حالة اليقظة إلى حالة المشاهدة ، وهكذا تتنوع الكشوفات عليك من الله سبحانه وتعالى وتترقى حتى تصير كل لحظة خيراً من الدنيا وما فيها ، لأن تلك اللحظات كلها لحظات من الله سبحانه وتعالى ، لحظات الاطمئنان بالله والكسوة منه ، فقد كساك سبحانه وتعالى جمالا وجلالا وهيبة وعظمك في نفوس الخلائق ، وجعل سرّك ينتشر بين الخلائق وهذا فضل من الله سبحانه وتعالى ، تكس حلة الرقي ، وحينئذ تلبس هذا اللباس ، لباس الرقي ، وإذا لبسته فإن الشياطين تهابك وتخاف منك لأنك محصن بالله ، مكسوّ بلباسه سبحانه وتعالى ، أما ترى الإنسان إذا كان خادما لملك من الملوك وكانت له علامة أو شارة تدل على خدمته لذلك الملك فإن الناس يعظمونه ويهابونه ، هذا عن المخلوق فكيف بالخالق سبحانه وتعالى ، هذه الحلّة ، وهذا اللباس ، لباس الرقي ولباس الإنتقال في الفضائل ، في درجات الكمال ومراتب التقوى ، هذه الحلة من الله سبحانه وتعالى زينة لك ، تجعل إبليس لعنه الله يفر منك عندما يجدك لابساً هذه الحلة الجليلة التي كساك بها المولى عزّ و جلّ ، وفتحت لها أبواب الجنان ، كيف والحقّ سبحانه وتعالى هو الذي يرقيك وهو الذي ألبسك هذه الحلة ، حلة التقوى ، حلّة الإيمان ، والمعرفة والكرامة ، وهي فضل منه .

واذكر الرب الجليل واثبتن تكس حلة الرقي

يعني يكسوك الحق سبحانه وتعالى الكسوة المعنوية الروحية ، بحيث تصير روحك تصعد مكسوة بهذه الكسوة الإلهية التي هي نور ، وسر يطير في عالم النور ، في عالم السرّ ، فتأتي بالغرائب وباللطائف ، لأنها مكسوّة بنور الله ، بعد أن تجرّد صاحبها من كسوته الدنياوية ومن العوائق الدنياوية .. فالمولى جلّ و عزّ يجرده ولكنه يكسوه هذه الكسوة الإلهية ، كسوة النور ، والسر والمعرفة والكرامة ، وكسوة الفضل من الله سبحانه وتعالى ، فالمولى عزّ و جلّ يخلع عليك هذه الكسوة ، ويجعلها علامة على إكرامك وترقيتك لأنه هو الذي رقّاك ، وهو الذي ربّاك ، والقلب يعترف بتربية الله سبحانه وتعالى ، وبفضله ، ويثبت عند ذكر الرب الجليل ليرى هذا الفضل العظيم الذي لايمنحه إلا السيد الكامل السيد المصلح الذي يصلح جميع المخلوقات وهو قادر ، بيده ملك كل شيء ، يقلّب القلوب كيف يشاء ، بل يقلّب جميع الخلائق كيف يشاء ، وعلى هذا تكسى حلة الرقي في المقامات وفي المنازل وفي الأحوال وترى عجائب هذه العجائب يفتح الله بها عليك « مايفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها » الآية ، هذه الرحمات التي يمدك الله بها هي من رحمات الجنة ، ولهذا يكون العارف في جنة وتسمى « جنّة المعارف » هذه الجنّة لما يكون قلبه حاضرا مع الله سبحانه وتعالى ، والمولى جلّ و عزّ يرقيه ، ويتولى ترقيته فيدخل عليه السرور حيث يشاهد بقلبه ويحسّ بأن الله هو الذي يتولى قلبه « وهو يتولى الصالحين » يشعر بهذا التولي ، كما يشعر بأن قلبه بيد الله ، ويتذوق حلاوة قوله تعالى « تبارك الذي بيده الملك » الآية ، يعلم بأن قلبه بيد الربّ الجليل ، يصلحه ويقلبه كيف يشاء ، ويمنحه أسرارا وأنوارا ، وكرامات وفضلا ويترقى به في مراتب الكمال ولايزال يترقى والكمال لاينقطع إلى أن يصير الإنسان ينتقل من جنّة إلى جنّة نعيمها لاينفد ولايفنى . فكل حالة وصل إليها إلا ويصلح الله له قلبه

وبهمّته ليستعد للترقي إلى غيرها ، فحين يصل إلى حالة يتلذذ فيها ، ويجد فيها مثلا الكرامات ، ينقله المولى عزّ و جلّ إلى حالة أعلى منها ، وكلما نقل من حالة إلى أخرى يقول هذه المرتبة جنّة جديدة ، كل لحظة حينئذ تصير جنّة جديدة يتجلى الله سبحانه وتعالى فيها بالنعم الفائضة التي يفيضها على قلبه من الإكرامات والإمدادات و التأنيسات الإلهية التي لايجدها المُعرض عن ذكر الربِّ الجليل .

والذكر الربُّ الجليل تكس حلة الرقي والغنى

تكس حلة الرقي وتكس كذلك حلّة الغنى ، تلبس لباس الغنى ، تصير عبدا غنيا بالله سبحانه وتعالى بعد أن كنت فقيرا بنفسك ، لكن المولى لما ربّاك ، وهذّب نفسك ورقّاك صرت غنيا به سبحانه وتعالى ، ففي هذا البيت تعظيم للرب الجليل ، يكسوك المولى جلّ و عزّ لباس الرقي في المقامات والغنى ، ويغني قلبك عن جميع الكائنات وهذه من أعظم الفضائل التي يتجلى بها الله سبحانه وتعالى حتى تكون سيّدا على جميع الكائنات لأن قلبك استغنى عنها جميعها ، إذ جعلك المولى سيدها وإمامها ، وهذا جلبه ، على كل حال ، ذكر الربِّ الجليل الذي هو السيد الحقيقي ، فالمولى عزّ و جلّ يعينك إسما من أسمائه ، ويجعلك سيدا ، ويجعل المخلوقات تحتك ، وهذا تجده بقلبك وليس المراد أن يجعلها تحت يديك في المحسوسات ، لأن ذلك لم يكن للأنبياء عليهم الصلاة والسلام وعلى نبينا أفضل الصلوات وأزكى التسليم ، وإن كان البعض منهم قد ملك الدنيا كسيدنا سليمان عليه الصلاة والسلام ولكن جميع المخلوقات بالنسبة للخالق إنما هي إعارة من الله سبحانه وتعالى الذي هو السيد الحقيقي ، فإذا تجلى عزّ و جلّ لعبد وأعطاه شيئا وجعله تحت يديه ، وجعله سيدا عليه فإن تلك السيادة إعارة فقط من الله سبحانه وتعالى يعني أنه أمدّه بها في وقت من الأوقات ، ولوقت من الأوقات ، فالإنسان

عليه ألا يعتمد على تلك السيادة ، وإنما يبقى معظما للرب الجليل حتى يترقى أيضا في المقامات ، يترقى في كل مقام له فتوحات وله فضائل وله كرامات ونفحات وروائح طيبة .

واذكر الرحمن صبحاً ومساً تلف نعمة وفيضا عمنا

الرحمن إسم من أسماء الله سبحانه وتعالى وهذا هو الإسم الثالث في بحر النور الذي قدمنا أنه هو البحر الأول من الفاتحة وهو بحر أسماء الله العظام تكلمنا على اسم الله ثم تكلمنا على الرب ومعناه والآن نتكلم على الرحمن . الرحمن هو المنعم بجلائل النعم يعني بالنعم العظيمة ، النعم الشاملة لنعم الدنيا ولنعم الآخرة . هذه النعم تشمل النعم على الكفار أيضا ، لأن النعم الدنياوية موجودة عند الكفار كما أنها موجودة أيضا عند المؤمنين . ويقال رحمن الدنيا ورحمن الآخرة يعني رحمن في الدنيا ورحمن في الآخرة بخلاف الرحيم فهو مخصوص بالمؤمنين لأن الرحيم هو المنعم بدقائق النعم وعلى هذا يكون للمؤمنين خاصة فالرحمات التي هي في الدنيا هي من تجلي الله سبحانه وتعالي باسم الرحمن « الرحمن على العرش استوى » الآية ، وقهر كل الموجودات وقهر كل الكائنات ، فالرحمن هو الذي استوى على العرش ، وهو الذي أفاض النعم على الخلائق وعلى الكفار وعلى الحيوانات وعلى جميع المخلوقات . فالرحمن هو المتجلي بالنعم الجليلة ، بالنعم العظيمة الشاملة لنعم الدنيا والآخرة ومرادنا هنا تدريب السالك في طريق الله سبحانه وتعالى حين يذكر اسم الرحمن « واذكر الرحمن صبحاً ومساً » واذكر الرحمن يعني اسم الرحمن وهو الله سبحانه وتعالى يشعر قلبك بالرحمة العظيمة التي يتجلى الله بها سبحانه وتعالى على جميع الخلائق وترى الخلائق كلهم مغمورين بهذه الرحمة لأنه مامشي ماش إلا بالله سبحانه وتعالى ولاتحرك متحرك ألا بالله سبحانه وتعالى . فهذه الرحمة من الله سبحانه وتعالى

فالرحمن هو المتجلي بهذه النعم العظيمة الشاملة لنعم الدنيا ولنعم الآخرة . وعلى هذا فالعارف يلزمه أن يدرب قلبه على إسم الرحمن ليستشعر رحمة الله سبحانه وتعالى العظيمة الشاملة حتى الكفار . فرحمة الدنيا هذه تشمل قلنا حتى الكفار أما رحمة الآخرة فتختص بالمؤمنين ولهذا يقال رحمن الدنيا والآخرة ورحيم الآخرة يعني الرحيم يتعلق بالمؤمنين . رحيم بالمؤمنين . المؤمنون يرحمهم المولى جلَّ وعزَّ بدقائق النعم كالإيمان الذي هومن الدقائق . من دقائق النعم يتجلى بها الله سبحانه وتعالى على عباده الذين اختصهم بكرامته واختصهم بمحبته واختصهم بالتنعم في دار الجنان في دار الخلد . هذا الرحيم . أما الرحمن قلنا فهو عام للجميع . للدنيا وللآخرة . وعلى هذا فالعارف ينبغي له أن يدرب نفسه على اسم الرحمن وسر تعظيم هذه الرحمة التي تشمل الدنيا وتشمل الآخرة فيرى أنه مامن موضع إلا وبه رحمة الله سبحانه وتعالى

(إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا..) الآية . فالمولى جلَّ وعزَّ هو الذي أمسك برحمته الدنيا ولم يزلزلها بنا وأنعم بجميع النعم على جميع المخلوقات بجميع النعم التي تناسب الأحوال أي حالة مثلا الدنيا أو حالة الآخرة وليس المراد أنه يمدهم بجميع النعم في الدنيا لأن نعم الله سبحانه وتعالى لاتحصى (وإن تعدوا نعمة الله لاتحصوها) وإنما المقصود أنهم مغمورون برحمة الله سبحانه وتعالى فهم في بحر رحمة الله سبحانه وتعالى فلو تذكر الكافر ما أنعم الله عليه به لرجع إلى سيده واعترف بذنبه وتاب إلى الله سبحانه وتعالى ورجع مؤمنا موحدا لفضل الله سبحانه وتعالى ولإنعام الله سبحانه وتعالى . واذكر الرحمن صبحا ومسا أي لازمه في الصباح وفي المساء عند الصباح في أول النهار افتتح النهار برحمة الله سبحانه وتعالى وتذكر الرحمن اسم الرحمن الذي يتجلى بالنعم الجليلة وكذلك في المساء تذكر

أيضا اسم الرحمن المتجلي بالنعم العظيمة فيصير نهارك وكذا ليلك كله رحمة تحت اسم الرحمن . واذكر الرحمن صبحا ومسا أي لازم هذا في الصباح وفي المساء تُلف نعمة يعني تجد نعمة من الله سبحانه وتعالى هذه النعمة يفتحها عليك التزامك لذكر الرحمن . لذكر اسم الرحمن . تذكر إسم الرحمن بقلبك وبلسانك وقلبك أولى من لسانك فالقلب هو المقصود ولهذا ترى الإنسان الذاكر ساكتا ولكنه ذاكر بقلبه الذاكر يعني الذاكر العارف تراه ساكتا ولكنه في الحقيقة ذاكر بقلبه وهذا من الذكر الخفي الذي لايعلمه إلا الله سبحانه وتعالى . واذكر الرحمن صبحا ومسا تلف نعمة أي إذا ذكرت اسم الرحمن ولازمته أول النهار .(عند هذا الحد توقف الشيخ رضي الله عنه عن الشرح لحكمة يعلمها الله سبحانه وتعالى واختتم الكل بالصيغة المعهودة عنه والموضوعة من طرفه في الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم وهي كالتالي :

(وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين)

اللهم صلّ على رسولك الأعظم ونبيك الأكرم سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم اللهم صلّ على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما عدد ما في أبواب الجنان وفيض الرحمن .

(سبحان ربك رب العزّة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين) .

من إسهامات
الشيخ عمر أبي حفص الزموري
المنشورة في الصحافة الوطنية

تنبيه مهم حول صرف الزكاة للمساجد

بعد حمد الله والصلاة والسلام على رسول الله وصحبه أقول قد سمعنا في مستهل هذا العام الهجري عام 1405 خمسة وأربعمائة وألف بواسطة الإذاعة من يقرر جواز صرف الزكاة للمساجد وينسب هذا إلى اتفاق الأئمة الأربعة مستدلا بقول الشعراني في الميزان : « اتفق الأئمة الأربعة على أنه يجوز إخراج الزكاة لبناء مسجد أو تكفين ميت » اهـ . هذه قولته كما ترى اغتر بها المعني ولم يعرضها على الكتب التي بينت أقوال الأئمة . وعلى هذا أقول إن هذه القولة سقطت فيها (لا) قبل قـولـه يجـوز ، وإن لم نصلحها صارت كذبا لأنها مخالفة للواقع . ونحن ننزه الشعراني عن ذلك . وأقول ليس الشأن أن لايوجد الإسقاط أو التحريف في الكتب إنما الشأن أن لايغتر به المفتي ، بل يعرضه على الواقع . وعلى هذا فأصل العبارة هكذا : « اتفق الأئمة الأربعة على أنه لايجوز إخراج الزكاة لبناء مسجد أو تكفين ميت » اهـ ويدلك على هذا أن الشعراني لم يدخل المسجد في الأصناف الثمانية واقتصر في تفسير قوله تعالـــــى : « وفي سبيل الله » على الغزو للأئمة الأربعة مع زيادة الحجاج في أظهر الروايتين لابن حنبل . وهاهو قوله : « ومن ذلك قول الأئمة الثلاثة أن المراد من قوله تعالى (وفي سبيل الله) الغزاة مع قول أحمد في أظهر روايتيه أن منه الحج » اهـ بلفظه . فلو كان المسجد داخلا لنسبه إليهم . ولكنه قدم التصريح بعدم الجواز للأئمة الأربعة . وهاهي النقول : قال في المدونة : « (قال) وقال مالك بن أنس لايجزئه أن يعطي من زكاته في كفن ميت لأن الصدقة إنما هي للفقراء والمساكين ومن سمّى الله وليس للأموات ولا لبنيان المساجد شيء » اهـ . فها أنت ترى التصريح من الإمام مالك بعدم الجواز فكيف ينسب إليه الجواز حسب استدلالكم بقول الشعراني على ظاهره ؟

وقـــال الونشريسي في المعيار : « وسئل عمن وجبت عليه زكاة

هل يبنى بها المسجد ؟ فأجاب بأنها لاتجزئه على قولهما (أي ابن القاسم وأشهب معـــا) . أ هـ وقال إبن رشد في بداية المجتهد : « وأما في سبيل الله فقال مالك مواضع الجهاد والرباط وبه قال أبو حنيفة . وقال غيره الحُجّاج والعُمّار . وقال الشافعي هو الغازي جار الصدقة » أ هـ مراد . وقال ابن جزي في القوانين الفقهية : (الفرع الرابع) « لاتصرف الزكاة في بناء مسجد ولا تكفين ميت» أهـ فها أنت ترى أنه لم يذكر خلافا والحالة أن كتابه يذكر فيه خلاف الأئمة الأربعة . وأزيدك أصرح مما قلنا ماقاله صاحب رحمة الأمة في اختلاف الأئمة الكتاب الذي بهامش الميزان للشعراني ، وهاهو قوله : « واتفقوا على منع الاخراج لبناء مسجد أو تكفين ميـــت » أهـ . وهذه صريحة تنبيء عن الإسقاط الذي يقوله الشعراني . هذه أقوالهم في المسألة . أما استنباط صرفها من لفظ (وفي سبيل الله) بحسب معناه اللغوي فنقول إن إطلاق (في سبيل الله) على الغزو حقيقة شرعية فلا يعدل إلا المعنى اللغوي ، كما أن للصيام حقيقة شرعية فلا يجوز صرفها لمطلق الإمساك الذي هو المعنى اللغوي ، وكما أن للصلاة حقيقة شرعية لايعدل عنها إلى المعنى اللغوي الذي هو الدعاء . ويدلك على أن (في سبيل الله) حقيقة شرعية في الغزو اقتصار الأئمة الأربعة وان كان ابن حنبل زاد الحجاج لكن لم يراع معناه اللغوي . والغزو هو المراد من الشارع . قال تعالى (ولاتحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا) الآية . ولهذا اقتصر عليه الطبري في تفسيره . وهاهو قوله : « قال : وأما قوله وفي سبيل الله فإنه يعني وفي النفقة في نصرة دين الله وطريقته وشريعته التي شرعها لعباده بقتال أعدائه وذلك هو غزو الكفار . وبالذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل . ذكر من قال ذلك : « حدثني يونس قال أخبرنا ابن وهب قال : قال ابن زيد في قوله وفي سبيل الله قال : الغازي في سبيل الله » . أهـ وأما قول المعني أن المتـــأخريـــن توســـعوا فيه ، فنـــقول

له : إذا كان الأئمة الأربعة اتفقوا عليه أي الجواز على ماقال ـ فلم يبق لهم إذن توسع ـ وعلى هذا فهذه المقولة لاحاجة إليها على ما ادعاه . وأما على مابينا من أنهم اتفقوا على منع الإخراج للمساجد فنقول ان المتأخرين ومن شذ عن الأئمة الأربعة غاية أمرهم أنهم خالفوا الأئمة الأربعة وهم قد انعقد الإجماع عليهم ولو سلم ان هؤلاء المتأخرين والشاذين مجتهدون فلايعمل باجتهادهم لخرقهم الإجماع . قال ابن السبكي في جمع الجوامع في الأصول : « ويعتبر قال الشيخ الإمام » لإيقاع الإجتهاد لا لكونه صفة فيه كونه خبيرا بمواقع الإجماع كي لايخرقه .اهـ مراد كما خالفوا الحقيقة الشرعية بلاقرينة ورجعوا إلى المعنى العام المجازي عند الشارع . والأئمة كما قدمنا عرفوا قوله تعالى (وفي سبيل الله) بالغزو وان كان الإمام أحمد زاد الحجاج . ولكن لم يدخلوا المسجد في أفراد المحدود . وقد اقتصر الطبري على تعريفه بالغزو كما قدمنا . والتعريف الأصل فيه أن يكون جامعا لأفراد المحدود ، مانعا من دخول غيره فيه كما هو مشهور عند المناطقة .

فتبين بهذا التعريف عدم دخول المسجد في قوله تعالى (وفي سبيل الله) وان المعنى الحقيقي الشرعي هو الغزو ثم إنا نقول لهم ان كان المعنى اللغوي هو المراد ينبغي أن لايذكر معه باقي الأصناف لأن معنى (في سبيل الله) طريق الله أي الشيء الذي يرضي الله . فإذن اعطاء الفقير والمسكين وباقي الأصناف طريق رضا الله فيشمله قوله تعالى (وفي سبيل الله) ولكن الشارع عين الأصناف ولم يكتف بقوله (وفي سبيل الله) فدل على أن المقصود بها ، المعنى الخاص لا العام . وتعيين الأصناف لامدخل للرأي ولا للقياس فيه ولايجوز أن يقال : صار الدين غريبا فتصرف للمساجد . ونحن نقول : وهو قد بدأ غريبا ولم تصرف للمساجد والأئمة أطلقوا القول بعدم الجواز ولم يستفصلوا في الأحوال : أي حال قلة الدين أو كثرته وذلك ينزل منزلة العموم .

وقال في جمع الجوامع : « وان ترك الإستفصال ينزل منزلة العموم » ا هـ وكيف والزكاة حقوق لأهلها محصورة فيهم بانما ، تاخذها منهم بدعوى خدمة الدين وأنت ترى أن المسجد يقام لإقامة الأحكام . فكيف تجعله وسيلة إلى تغيير الأحكام . وهل يسوغ ان تعمد إلى المواريث التي قسمها الحق جل وعلا وتعطي منها للمسجد بدعوى ان الدين صار غريبا . وغير خفي أن المسجد كباقي المصالح العامة كالطرقات والمدارس محل الجميع بيت المال أو جماعة المسلمين ان عدم بيت المال . وفي الختام أقول أن الذي بعثني على الكتابة هو ادعاؤكم اتفاق الأئمة الأربعة على الجواز واستدلالكم بقول الشعراني في الميزان الذي بينا أنه نقص منه لفظة (لا) . وان لم نصلحه كان كذبا لمخالفته النصوص . وهذا الحكم يجري حتى في الأحاديث الشريفة التي ألقاها الراوي موهمة للباطل فتحكم عليها بالكذب أو النقص .

قال ابن السبكي في جمع الجوامع : « وكل خبر أوهم باطلا ولم يقبل التأويل فمكذوب أو نقص منه مايزيل الوهم » ا هـ. هذا فيما رواه الراوي في الأحاديث الشريفة التي يتحفظ فيها فكيف بغيرها وبالاسقاط في الطبع . وها نحن بينا لكم ولمن يسمع مقالتكم ، فاتقوا الله في الأمانة ولا يحملكم التعصب والهوى على الإسترسال في فتواكم المخالفة للأئمة الأربعة والمخالفة للحقيقة الشرعية والله على مانقول وكيل .

حرره أبو حفص عمر الزموري إمام مسجد سيدي رمضان العاصمة الجزائر بتاريخ 20 ربيع الأول 1405 هـ .

ملاحظة :

بما ان المعني لم يتراجع في فتواه بجواز صرف الزكاة للمساجد ، وفي قوله باتفاق الأئمة الأربعة على ذلك ، أحببنا أن ننشر هذه المقالة بجريدة الجمهورية .

لقد نشر هذا التنبيه على صفحات جريدة الجمهورية بتاريخ الإثنين 17شعبان 1408هـ الموافق ل : 4 أفريل 1988م .

هل كلمة مسلمة أصل في حديث « طلب العلم فريضة على كل مسلم » ؟

بعد حمد الله والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه أقول بما أن هذا الحديث انتشر وصار يلقن للصبيان بزيادة (ومسلمة) أحببنا أن نذكر ماقاله فيه بعض الحفاظ وإنا لانريد بذلك إلا صيانة الرواية وان كان لأحد دراية بهذه الزيادة فليبين أصلها المعتمد عليه وليذكر النص المصرح بالزيادة لامجرد وجودها مكتوبة في بعض الكتب ولا مايتكلفه البعض لكون المرأة مطلوبة بالتعلم فيما يلزمها فنقول هذا لايغير الرواية وقد قال تعالى متوجها للذكور :(فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لاتعلمون) ومع ذلك فإن الأنثى مطلوبة أيضا بالسؤال عن أمر دينها وإنما جاء الخطاب للذكر تغليبا . هذا في الآية الشريفة ، أما لفظ (مسلم) في الحديث الشريف فهو صفة للشخص فيشمل الذكر والأنثى كما صرح به بعض شرّاح الحديث وقد قال صلى الله عليه وسلم (المسلم أخو المسلم) وقال تعالى (إنما المؤمنون أخوة) والمرأة داخلة فيما ذكر إما باعتبار الشخص وإما باعتبار التغليب وعلى كل فمقصودنا صيانة لفظ الحديث وإن كانت (ومسلمة) صحيحة من جهة المعنى ولكن إدراج كلمة أخرى في الحديث من غير دلالة على زيادتها حرام هذا إن لم نجعلها من الموضوع أي المكذوب على رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد قال ابن السمعاني :

« من تعمد الإدراج فهو ساقط العدالة ومن يحرف الكلم عن مواضعه وهو ملحق بالكذابين . نقله السيوطي في التدريب . وإن كان قال أي السيوطي وعندي أن ما أدرج لتفسير غريب لايمنع اهـ . ولكن لابد وأن يبين إما من طرف الراوي أو من الأئمة المطلعين أو يكون الأصل مشهورا أو تكون علامة تنبىء عن ذلك والا أدى إلى اعتقاد ماليس بحديث حديثا كما يؤدي إلى القدح في ضبط الراوي الذي لم يميز بين حديث النبي صلى الله عليه وسلم وحديث غيره والحال انه إذا لم يميز بين المنقول لايوثق

بعلمه . سئل الإمام أحمد رضي الله عنه عن ابن اسحاق إذا انفرد بحديث اتقبله فقال لا إني رأيته يحدث عن جماعة ولا يفصل كلام ذا من كلام ذا » . اهـ. ولترجع إلى ماقيل في الحديث المذكور . قال العلامة السندي في حاشيته على سنن المصطفى صلى الله عليه وسلم للإمام الحافظ العلامة ابن ماجة : وقال السيوطي : سئل الشيخ محيي الدين النووي رحمه الله تعالى عن هذا الحديث فقال انه ضعيف أي سندا وان كان صحيحا أي معنى وقال تلميذه جمال الدين المزي : هذا الحديث روي من طرق تبلغ رتبة الحسن وهو كما قال فإني رأيت له نحو خمسين طريقا وقد جمعتها في جزء . انتهى . وقال السندي قبل هذا : وقال السخاوي في المقاصد الحق بعض المصنفين بآخر هذا الحديث « ومسلمة » وليس لها ذكر في شيء من طرقه وإن كانت صحيحة المعنى . اهـ. فأنت ترى التصريح بالنفي لهاته الكلمة من السخاوي الذي قيل فيه إنه في علم الحديث وعلوم الإسناد ومايتعلق بالرجال والعلل والتاريخ إمام لايشاركه فيها أحد . اهـ.

كيف وشيخه الحافظ العلامة ابن حجر . وقد قال السيوطي في التدريب : إذا قال الحافظ المطلع الناقد في حديث : لا أعرفه ، اعتمد ذلك في نفيه كما ذكر شيخ الإسلام . ثم قال بعد ماذكر ما يعارض هذا من ذلك قصة الشاب الذي قال للشعبي : فاجعل هذا في الشطر الذي لم تسمعه . قلنا أجيب عن ذلك بأنه كان قبل تدوين الأخبار في الكتب فكان إذ ذاك عند بعض الرواة ماليس عند الحفاظ واما بعد التدوين والرجوع إلى الكتب المصنفة فيبعد عدم الإطلاع من الحافظ الجهبذ على مايورده غيره فالظاهر عدمه . اهـ. هذا وقد تبين لكم أن لفظة (أو مسلمة) ليست من أصل الحديث فمن ادعى أن لها أصلا صحيحا فليبينه ولينقل نص المحدثين على إثباتها والله ولي التوفيق .

حرره أبو حفص عمر الجزائري السطيفي الزموري

وفقه الله أمين بتاريخ 19 رجب 1403 للهجرة

على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التسليم

ونشر بجريدة المساء عام 1989 ثم اعيد نشره في مجلة

العصر بعد وفاة الشيخ رحمه الله

تفسير : للعلامة الشيخ عمر أبو حفص الزموري

« يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ... إلى : وأولئك هم المفلحون

خاطب سبحانه وتعالى عباده المؤمنين بهذه الآيات الكريمات وجمع لهم فيها دعائم الخير ووسائل النجاح من تطهير النفس وحفظ الدين وصيانة جماعة الإسلام ، فأعظم بالقرآن من مؤدب يقرع صوته قلب المسلم فيندهش لجلاله وعظمته ثم يصقل قلبه بعظيم أنواره ويسحر لبه بلذيذ حلاوته . أجل إن تأديب القرآن يضمن للإنسان راحته في نفسه ، راحته في بدنه ، راحته في وحدته ، راحته في جماعته ، راحته في الدنيا ، راحته في الآخرة . وانظر إلى هذه الآيات الكريمات كيف جمعت من الأدب أعلاه ، ومن العمل أزكاه ، وانظر كيف بنيت تلك الآداب على أساس متين ، وأصل عظيم ، وذلك الأساس هو ما أشار إليه تعالى بقوله : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته » ، إذ لايكون الإنسان مستعدا لأعمال الخير وقابلا للإرشاد وأهلا لأن يحفظ به الإسلام إلا إذا عني أولا بتطهير نفسه وإيقافها عند الأمر والنهي وقهر شهواتها وتدريبها على الصراط المستقيم حتى يكون عشقها وهواها في اتباع السنة ونبذ ماعداها . قال صلى الله عليه وسلم : « لايؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به » . أي لايؤمن ايمانا كاملا حتى يكون عشقه طبق ماجئت به من الخير . وهذه الحالة هي التي أمر بها تعالى بقوله : « اتقوا الله حق تقاته » فحق تقاته هي التقوى الكاملة ، وهي أن تصير أعمال الخير معشوقة لفاعلها يأتيها دون تكلف بل بلذة وسرور ، ويكفيك قوله صلى الله عليه وسلم : « وجعلت قرة عيني في الصلاة » .

وقد يقال أن صيرورة أفعال الخير طبق هواه ليست من المستطاع ولا من كسب العبد ، إذ الهوى عارض لطيف متصل بجواهر النفس ، قاهر لها ، متصــرف

فيها ، والمولى جل وعلا لايكلف بالمحال بل لايكلف نفسا إلا وسعها ، فنقول نعم ولكن هو مكلف بأسبابها كالإصغاء بقلبه إلى خطاب الله والنظر في عجائب صنع الله ، ولهذا قال تعالى : « قل انظروا ماذا في السماوات والأرض » وقال : « أفلا يتدبرون القرآن » ، وما أشبه هذا من الحث على الإلتفات إلى التفكر والتدبر الذي به يتنور الباطن وتصدر به أعمال الطاعة ممزوجة بسر التوحيد خالصة من الرياء ، سالمة من هوى النفس وشر الشيطان المريد ، فالمؤمن إذا استفرغ وسعه في المحافظة على تلك الأسباب التي هي من أعظم هاد للطاعات ، وأكبر قاهر عن المنهيات ، وأجل نافع لتنوير الجنان ، زكت عندئذ نفسه ، وتجلت فيه أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم فتصير الطاعة قرة عينه ويكون اتقى الله حق تقاته .

ثم بعد أن أمر الله سبحانه وتعالى المؤمن بالتقوى الكاملة التي مآلها لتطهير الجنان ومراقبة الملك الديان نهاه عن أن تحوم حوله غفلة تقطعه عن أعمال الإسلام فقال : « ولاتموتن إلا وأنتم مسلمون » ، والموت غيب لايعلم وقته إلا الله فينبغي للمؤمن أن يحافظ على أعمال الإسلام في جميع أوقاته لأنه لايدري وقت حلول المنون به ، فيستفاد من الآية الأمر بالمحافظة على الإسلام في جميع الأحوال ، فإن ذكرها عقب الأمر بالتقوى التي مآلها لتصفية الباطن يرشد إلى أن أعمال الإسلام الظاهرة حصن لسلامة الباطن ، فمتى تساهل فيها أظلم قلبه وضعف إيمانه حتى ينتهي إلى الكفر والعياذ بالله ، قال صلى الله عليه وسلم : « إن المؤمن إذا أذنب ذنبا كانت نكتة سوداء في قلبه فإن تاب ونزع واستغفر صقل منها وإن زاد زادت حتى يغلف قلبه فذلك الران الذي ذكره الله في كتابه : « كلا بل ران على قلوبهم » . وقال أيضا صلى الله عليه وسلم : « العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر » .

وبعدما أمر المولى جل وعلا المؤمن بما يصلح أمره باطنا وظاهراً أمره بأن

ينضم إلى اخوانه المسلمين وأن يتمسكوا جميعا بدين الإسلام محافظين على أوامره فقال تعالى : « واعتصموا بحبل الله جميعا ولاتفرقوا » . فالأمر متوجه إلى تاليف أعمال الخير وتوحيد كلمة المسلمين على الحق وتمسكهم جميعا بما شرعه لهم من الخير بكتابه المبين الذي هو مصدر الدين وهو حبل الله المتين . قال صلى الله عليه وسلم : « القرآن حبل الله المتين لاتنقضي عجائبه » ونهى عن التفرق بعد ادعاء الإسلام ، وهذا راجع للجماعة إذ جماعة الإسلام كأعضاء أوقدت في محل فيعظم النور ويزداد السرور ، فان نقص واحد ضعف النور ونقص السرور ، ولهـــــذا ورد : « المؤمن ضعيف بنفسه قوي بأخيه » .

ثم لفت نظر المؤمنين إلى ذكر نعمة الإسلام التي من أعظمها تاليف القلــوب وإزالة العداوة والبغضاء فقال تعالى : « واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم » الاية . هذه الآية نزلت في الأوس والخزرج أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم . قيل كان الأوس والخزرج أخوين لأبوين فوقعت بين أولادهما العداوة وتطاولت الحروب مائة وعشرين سنة حتى أطفأها الله بالإسلام وألف بين قلوبهم ، وهذا يحمل على التمسك بدين الإسلام الذي هو أعظم قاطع للشرور كما يشهد له بالفضل العظيم .

وهذه الآية وإن كانت خاصة يمكن تطبيق على كل جماعة كانت بينهم العداوة فتابوا جميعا وتمسكوا بحبل الله المتين ، فلا شك وأن قلوبهم تتآلف وتتقلع منها جذور النفس وتسد منافذ الشيطان .

وانظر إلى تاديب القرآن العجيب فانه بدأ أولا بتاديب الإنسان في نفسه ثم أمره بأن ينضم بعمله المبرور إلى اخوانه لتكون لعمل الخير صورة كبيرة ، ثم أمر الجماعة بأن يسعوا في نفع غيرهم وان يبذلوا جهدهم في تكوين طائفة مخصوصة

تقوم بواجب الإصلاح والإرشاد فقال تعالى : « ولتكن منكم ... » الآية . والخطاب في تكوين الطائفة المخصوصة موجه إلى جميع الأمة ، فهم مكلفون جميعا ببذل جهودهم في إقامة هاته الطائفة كل يسعى بما وسعه بالمال أو باليد أو باللسان ، أما القائم بواجب (الأمر والنهي) فهو طائفة مخصوصة وليس كل الناس أهلا لهذا الواجب العظيم لهذا قال تعالى : « ولتكن منكم » ومن يستحق هذا المنصب هو من تحلى بأخلاق النبي صلى الله عليه وسلم من الرحمة والنصيحة وطهارة الصدر والمحافظة على البر إذ هو خليفة لبذر الخير في النفوس بماله من الوراثة النبوية . قال صلى الله عليه وسلم : « من أمر بالمعروف ونهى عن المنكر فهو خليفة الله في أرضه وخليفة رسوله وخليفة كتابه » ولهذا قال تعالى : « وأولئك هم المفلحون » أي هم أهل الفلاح الكامل .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

أبو حفص عمر الجزائري الزموري

إمام مسجد سيدي رمضانالجزائر (العاصمة)

نشر بجريدة « المساء » بتاريخ يوم الأربعاء 16 أوت 1989م

صفحة (دنيا الإسلام)

بعض مانشر في ذكريات وفاته

في الذكرى الأربعين لوفاة المرحوم العلامة أبي حفص عمر

قليل هم الذين يموتون فيتركون من ورائهم ذكرا حسنا ، وإشادة بخصالهم وجهادهم ومواقفهم ، حتى لكأن موتهم بداية خلودهم ، فلا تفتأ الألسنة تردد ذكرهم في كل ظرف ، ولا تفتأ الأقلام تفيض عنهم لتبرز جهادهم ونضالهم ، وشيخنا أبو حفص من هذه القلة القليلة التي كتب لها أن تحيا بعد موتها ، وأن تخلد بعد رحيلها إلى جوار الله ورحمته ، ثم هو من هذه الفئة القليلة التي لم تشأ أن تعيش وسط الأضواء البراقة ، لعلمه أن أثره سيظهر في الناس بعد حين . ولأن المرء إنما تجلو آثاره بعد موته ، وتبرز بعد رحيله ان كانت له آثار ومواقف يحيا بها ويخلد في الخالدين . ولقد صدق القائل :

ليس الخمول بعيب　　　على امرىء ذي جلال

فليلة القدر تخفى　　　وتلك خير الليالـــــي

لقد استأثرت رحمة الله تعالى صبيحة يوم الخميس 15شوال 1410 ه الموافق لـ10 ماي 1990م بالشيخ العلامة عمر أبي حفص عن عمر نيف عن ست وسبعين سنة ، إذ هو من مواليد عام 1913م وعاش شيخنا يتيم الأب لأن والده توفي وهو صغير ، فكفله عمه الصالح المتعبد ، علي بوحفص الذي كان نهاية في الزهد والورع ، وكان قبلة يحج إليه طلاب كتاب الله من كل حدب وصوب ، لأن الله فتح له في تدريس القرآن فحفظه عنه خلق كثير من بينهم الأستاذ المرحوم ، وذلك بقرية زمورة الشهيرة بتدريس القرآن وتحفيظه في ولاية برج بوعريريج .

بعد أن أتم المرحوم حفظ القرآن على يد عمه السالف الذكر ، اشتاقت نفسه إلى طلب العلم والتماس سبله فلم يجد خيرا من عالم زمورة الأجل ورجلها الأوحد

العلامة أحمد بن قدور الذي كان مضرب الأمثال في الحفظ وصفاء القريحة وقوة الذاكرة وسرعة البديهة ، وعلى الرغم من أن الموت قد عاجله ولم يمهله حتى يرى الناس العجب من حفظه وسعة علمه ، إلا أنه سابق الزمن ، وسجل بعض الآثار الجليلة التي تدل على صدق مخبره وبلائه في بث العلم ونشره في أوساط الناس ، حيث ترك مكتوبا بخط يده مجموع متون يحتوي على نيف وستين متنا من أنفس المتون وأغلاها ، بل به متون نادرة لاتعثر عليها ولو أنفقت في طلبها كل ماتملك ، وسلكت في سبيلها كل سبيل كمتن ابن غازي في القراءات وغيره ، وكانت له ـ رحمه الله ـ على هذا المتون ملاحظات وتعليقات مفيدة ونفيسة .

لازم الأستاذ الفاضل شيخه المذكور يدرس عنه في قرية زمورة حتى ارتوت نفسه وعلت همته ، وصار واحدا من رجال العلم الذين جمعوا بين علمي الظاهر والباطن ، وبين الشريعة والحقيقة كما تشهد بذلك مجالسه التي ورد وصفها على لسانه عفويا :

مجالس أسرار مشارق أنوارها عناية قهار بها قد توجهنا

ولقد تصدى للتدريس ونشر العلوم الدينية واللغوية ، وإشاعة التقاليد والسنة النبوية المطهَّرة ، في العديد من أرجاء الوطن المفدى كوادي زناتي ، وعين فكرون وزاويتي شلاطة وسيدي موسى ، فضلا عن زمورة التي استقر له فيها المقام لتدريس أبنائه وإخوانه حتى حدود سنة 1965 حيث انتقل إلى العاصمة ليباشر بها مهمة الإمامة في مسجد سيدي رمضان بحي القصبة العتيد .

وكان رحمه الله بمثابة الأب العطوف والمعلم المخلص الذي لايألو جهدا في خدمة المعرفة ، والدعوة إلى الله في تواضع العارف بالله ، ولا غرو ، فهو رجل تقوى

وورع ، أخذ هذه السجايا من مشكاة الرسول صلى الله عليه وسلم . وكان كثير الإعتماد على القدوة في تربية الرجال مقتنعا أن المرء إنما يؤثر بنصائحه وتوجيهاته وكلامه ، لذلك كان مثالا حيا لما ينبغي أن يكون عليه المسلم من خلق ، ونموذجا فذا لما يفرضه الدين من استقامة واهتداء ، يعامل كل واحد على حسب استعداداته ، متدرجا في السمو إلى مقام الفيض .

ولقد كانت مجالسه مع ماكان يضفيه عليها من جديات يقتضيها مقام المذاكرة ، لاتخلو من انبساطات الصدر المنشرح الذي لايقبضه شيء من العوارض ، كيف لا وهو صاحب القلب الكبير المنبسط لله تعالى ، المقبل عليه إقبال من عرفه فأحبه . وأمن به فانقطع له ، وعاهده فثبت ووفى بالعهد .

ويقدر ماكان رحمه الله متواضعا ، دمث الأخلاق بقدر ماكان شديدا في الدفاع عن الحق ، دفاع من لم يكن يخشى في الله لومة لائم ، وهو ماتشهد له به تدخلاته في المجالس الرسمية ، وكتاباته المفحمة التي أثبتت بها أن الولاء ينبغي أن لايكون إلا لله وحده ، من قبل العلماء المدركين لرسالتهم في الحياة الدنيا .

ثم ماذا؟ هل مات من ترك مثله الرجال ، ونشر الأخلاق الفاضلة ، وأحيا السنة ، وخلف هذا الذكر الحسن ، وشهد له الناس بالفضل ، وترك مؤلفات منها كتابه القيّم « فتح اللطيف في التصريف على البسط والتعريف » الذي شرح فيه أرجوزة المكودي ، وهو كتاب فريد في بابه ، كان المرحوم يتمنى أن يرى النور في حياته ويتداول بين أيدي القراء من أبناء اللغة العربية لكن حالت دون ذلك عراقيل يعرفها جميع من له خبرة بقضايا التأليف والطبع عندنا ... وله مؤلفات أخرى كـ « دليل الحاج » وكتاب « الصلوات على النبي صلى الله عليه وسلم » الذي ختمه بقصيدته العصماء التي

مطلعها :

ريدن ذكر الحبيب علنا　　　ان ذكرناه نفوز بالمنى

ولعل الله سيقيض ـ من عباده الصالحين ـ من يسعى في نشر هذه الثمرات ليعم الإنتفاع بها .

وبعد ، إن المرحوم لاتفي بحقه مثل هذه العجالات ، ولكن مثل هذه الكلمة المتواضعة مع قصورها أقل مايمكن أن يعرًف به هذا القلب الكبير الذي نذر عمره كله للدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، وهي كلمة مستوحاة من مجمل الكلمات التأبينية التي قيلت يوم توديعه إلى مثواه الأخير .. وأحببنا أن نضيف إليها هذا المقطع المعبر بصدق عن إحساس الناس يومئذ بهذا الفقد العظيم والمصاب الجلل .

« سلام عليك يا أبا حفص ، فقد أوحش منك الزمان ، وأوحش منك المكان ، وحلت الحسرة بموتك ، وعم الظلام بفراقك ، فمن للعلم بعدك يشبع محبيه ، ويدني طالبيه ، ومن للفقه بعدك في فتح المغلقات وتوضيح المصنفات ، ومن للعربية بعدك يجلي غموضها ، ويذلل دروبها ، فقد أزلت في بسطك وتعريفك كل إشكال ، ومحوت كل لبس ، وأحرزت فضل السبق ، وحزت فيها المقام الأسمى ، فمن يحاكي ماصنعت ، ومن يطاولك فيما فعلت ، ومن ينكر فضلك في الناس ، أو يجهل علمك في العالمين ، فلله درك من عالم كانت أيامك صحائف سجلت فيها جلائل الأعمال وعظائم المقاصد ، وياك من عالم عرضت عليك الدنيا بزخارفها فأبيت وأعرضت ، لأن الإيمان عندك أحلى ، والعلم عندك أغلى ، سلام عليك يا أبا حفص وقد اخترت الرحيل للقاء ربك وسرت تاركا من ورائك جموعا غفيرة جاءت لتشهد لك بالفضل ، وتذكر أياديك فيها ، ونعمك عليها ، وتعرب عما تحس من كرب وحسرة لأنها رزئت فيك وفجعت بك ، سلام عليك يا أبـــا

حفص وقد ووريت الثرى وغُيبت عن قلوب كانت تحبك لأنك ملأتها علما وهداية ، فهي تتلهف عليك ، وتتحرق على فراقك الأليم وغيابك المفجع ، فمن لهذه القلوب بعدك يا أبا حفص ؟ إن غيابك أحدث بها جراحا لاتندمل وسقاما لاتنمحي .

« ياأيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي وادخلي جنتي » فرضي الله عنك وعن جميع الأولياء والأصفياء ومن تعلق بك وبهم في محبة الله ورسوله الأعظم عليه الصلاة والسلام إلى يوم الجمع الأكبر .

جريدة المساء
الخميس 8 ذو الحجة 1410هـ
الموافق لـ 29 جوان 1990 م

في رحاب الذكرى الأولى لوفاة العلامة الشيخ أبي حفص الزموري

كانت ليلة الجمعة 24 شوّال 1411هـ الموافق لـ 10 مايو 1991م ليلة مشهودة بزاوية الشيخ العلامة عمر أبي حفص رحمه الله، الواقعة ببرج زمورة، ولاية برج بوعريريج، إذ هي ليلة يصادف تاريخها الذكرى الأولى لالتحاقه بالرفيق الأعلى.

لقد أقيم بالمناسبة حفل ساهر متميز في محتواه، ضم أغلبية طلبته ومريديه ومعارفه (وأكثر معارفه تلاميذ ومريدون)، جاءوا من نواح شتّى، والتقوا في موعد التاريخ على بعث الذكرى وإحياء مآثر المرحوم الراسخة في القلوب باستمرار.

قام النشاط - في أساسه الديني - على تلاوة القرآن الكريم، وأذكار تمجد المولى جل جلاله، وصلوات مباركات على حبيبه ومصطفاه عليه أفضل الصلوات وأزكى التسليم، وقد تخللت السهرة مذاكرات علمية ذات صبغة روحية عميقة فاضت بها ألسن بعض الحاضرين من تلاميذ الأستاذ أبي حفص ومحبيه، شدت إليها القلوب بأسلوبها التلقائي وخطابها العفوي، وصدقها غير المشوب بأي غرض عدا ابتغاء وجه الله، وصلاح المسلمين.

كما اتسعت الليلة إلى إنشاد قصائد لم تخرج في موضوعها عن مضمون المذاكرات المشار إليها. ومن ذلك قصيدة ألقاها أحد الطلبة بعنوان (وقفة في نادي الخلود) فيها إشادة بمآثر الأستاذ عليه رحمة الله نذكر منها:

سلك الصبابة منهجا مثلها   لصت هواه مليمون قدامى

طاف الفؤاد بأرضه ومزاره   وجد الهدى في قبضتيه زماما

جبل المعـــــارف بثــــها متبرعا　　　صقل القرائح انطق الافتاما
أرسى الفضائل في النفوس فزانـــها　　　وأماط عن شبه الفلاة لثاما

وتجدر الإشارة إلى انضمام طائفة من مسلمي أوربا إلى الجمع الحاضر ، جاء بهم ما انتهى إليهم من مناقب الأستاذ رحمه الله وقدّس سرّه ، وطلبهم لمنابع المعرفة ، ونشدانهم لسبل السلام . وقد كانت لهم فرصة الاعراب عن اغتباطهم بما اعتبروه اصطفاء إليها لهم من دون كثير من بني جلدتهم ، وأفصحوا عن سعادة قلبية بما لمسوه من محبة في الله بين الجموع التي جاءت تحيي ذكرى الأستاذ رحمه الله .

هذا ، وإن الجمعية الدينية القائمة على تسيير شؤون زاوية الشيخ رحمه الله ، كانت قد نظمت معرضا للتعريف بالمرحوم وبآثاره وأعماله ، مما أضفى على الحفل طابعا متميزا ، أجمع الحاضرون على نجاح دوره الذي أريد له أداؤه في الظرف الراهن وفيما بعده بإذن الله .

جريدة (الشعب)
الثلاثاء 28 شوّال 1411هـ
الموافق لـ: 14 ماي 1991 م

بمناسبة الذكرى الثانية لوفاة العلامة عمر أبي حفص الزموري في ماي 1990

إن من أوجب الواجبات ، أن يقف الوطني الحق ، وقفة إجلال وتقدير لأبناء وطنه الذين التحقوا بربهم عز وجل ، بعد أن أدوا ماعليهم تجاه دينهم واخوانهم ووطنهم في ميادين شتى ، ومن أبناء هذا الوطن الذين نذروا حياتهم لخدمة الدين الإسلامي الحنيف ، نذكر العلامة الشيخ عمر أبا حفص الزموري عليه رحمة الله ، والذي مرت قبل يومين الذكرى الثانية لوفاته والتي تصادف يوم 10 من شهر ماي عـــــام 1990 م .

ولد عليه رحمة الله سنة 1913م وتوفي أبوه أبو حفص وعمره لايتجاوز سبع سنين فكفله أخوه الفاضل السيد محمد والولي الصالح علي ابن عم والده ، معلم القرآن والذي أشرف على تعليمه القرآن الكريم .

وبعد ذلك ، تعلق قلبه بالعلوم فتتلمذ على يد الشيخ الكبير السيد أحمد ابن السيد الحسين بن قدور المتوفي سنة 1355 هـ الموافق لعام 1936م .

وكان هذا الشيخ محل تعظيم ومهابة من الناس .. وكان من عائلة مشهورة بالعلم ، يحفظ مجموع المتون حفظا جيدا وكتب عليه تقريرات كشرح .. وكتب أيضا على التسهيل .. وبالجملة فهو في النحو والتصريف لايجارى .. بل في جميع العلوم .. وهو مرجع العامة في قضاء الأوطار .

فلما قام عند الشيخ عمر أبي حفص فضله كان يعظمه كلما لقيه .. وكان هذا الأخير يقول له : « المعادن لاتخيب » . ثم تعلم عليه ماكان سببا في سعادته وان كان قليلا كما يقول الشيخ عمر رحمه الله مضيفا :

« .. وكنت أحفظ متونا كثيرة من خطه .. وإن كان الجلوس بين يديه قليلا ، ولكن أجازني بخطه ، وتعاطيت التعليم في حياته ودعا لي ، وقال : إن البعض قالوا : كيف يعلم فلان بحضرتك ؟ فقلت لهم : لو كان لي بعض الهوى لذهبت لأتعلم عليه ، وهذا منه - رحمه الله تعالى - تواضع عظيم ، وقد أجازني رضي الله عنه ودعا لي في إجازته بعظيم الدعاء ، الحمد لله على رضاه » . إنتهى كلام الشيخ .

ثم دعا الحال الشيخ عمر أبا حفص إلى الإنتقال لملاقاة الرجال ، فلقي رجالا انتفع برضاهم ومذاكرتهم في العلوم ، وكان يوم وفاة الشيخ أحمد بن قدور بعنابة بزاوية الشيخ المفضال السيد الحسن الطرابلسي رضي الله عنه ، فلما سمع بوفاته رحمه الله تعالى ، تغير حاله ، وكان قد كتب قصيدة في جريدة « النجاح » رثاء له مطلعها :

دع العذول ومر عينيك أن تسكبا — دمعا على منبع العلوم وأعيبها

وفيها يقول أيضا :

تذكر أحمد في السرو وبمشهده — اذ الوفود تجي إليه يهديها

تراه في هيبة كالليث بينهم — والبدر في كشفه السبل لماهيها

وكان قبل ذلك ، قد أوضح مدى الفجيعة التي أصابته بفقدان هذا العالم الجليل المتصف بالتحقيق في التدريس والتدقيق في الشروح وفي حواشيها ..

يقول رحمه الله في مرثيته المذكورة :

إني إذا رمت صبرا عنه ذكرني — تحقيقه في الدروس حين يلقيها

إني إذا رمت صبرا عنه ذكرني — تدقيقه في الشروح أو حواشيها

وإنها الشهادة فاضل لفاضل ! .

بعد ذلك عاد الشيخ رحمه الله من عنابة إلى قرية جدوده زمورة ، وقام فيها

إمام الجمعة في جامع سيدي أحمد الجنوب ، ثم كان له فيما بين ذلك انتقالا لبعض جهات الوطن ، مثل وادي زناتي ، وعين الفكرون وزاويتي شلاطه وسيدي موسى حيث اشتغل بالتدريس .

وفي سنة 1965م ، انتقل إلى العاصمة الجزائر إماما خطيبا ، واستقر بمسجد سيدي رمضان بحي القصبة العتيق ، يتولى مهام الإمامة إلى غاية انتقاله إلى جوار ربه عام 1990م .

إن الشيخ أبا حفص عمر رضي الله عنه ، عند من عرفه ، هو ذلكم العالم الذي كانت التقوى لباسه ، والخلق الكريم قوامه وأساسه ، والعلم شيمته والهدى صفته . وقد كان إلى جانب كل هذه الخلال والمكارم ندرة في الذكاء والنبل ، ومنتهى العفة والطهر ، وآية في الصدق والوفاء ، ونهاية في الورع والصفاء ، وهذا ماجعله عديم النظير بين أقرانه ، فريدا في صفاته وأخلاقه ، فهو الفقيه الذي تحل بعلمه المشكلات ، وتزول به المعضلات ، ويعالج قضايا الناس بفهم وبصيرة ، ويتناول مشاكلهم في ورع وتقوى ، لايستهويه الطمع ، ولا يحيد به عن الحق مال ولا دنيا ، لأن الحق عنده أغلى من الدنيا ، ووجه الله عنده أعز من كل شيء ، لذلك راح يلتمس الحق في كل وجه ، ويطلب بكل سبيل ، لأن الحق غايته والإنصاف مطلبه .

ولقد كان الفقيد يعمل ليل نهار ، يقضي وقته في نشر العلم ، وبث الهداية وفض الخصومات وحل النزاعات ، يؤمه الناس في قضاياهم فيجدون عنده كرما وحسنا ، يفتح لهم بابه ، ويوسع لهم مجلسه ، يلبي مطالبهم ، ويقضي مآربهم ، لايريد منهم جزاء ولا شكورا ، فينصرفون راضين ويذهبون شاكرين . ويأتيه الطلبة غرثى ، فيقدم لهم ألوانا من العلوم والمعارف ، تسمو بها نفوسهم ، وتعلو بها هممهم ، فتسعد

أحوالهم ، ويأتيه الوافدون يرتادون مجالس العلم ، ويغشون مواطن الهداية ، فينهلون من حياضه

ويشربون من موارده كل عذب نمير ، يروي ظماهم ويشفي غليلهم .

ويأتيه مريدون يلتمسون دواء تصفو به القلوب ، فيلقون لديه البلسم الشافي الذي يزيل العلل والأسقام .

وجملة القول ، أنه كان حقا من المشائخ الشوامخ الذين جمعوا بين علمي الظاهر والباطن ، وبين الشريعة والحقيقة ، كما تشهد بذلك مجالسه التي ورد وصفها على لسانه عفويا ، باعتباره دائرة نورها :

مجالس اسرار ، مشارق انوار   عناية قهار ، بها قد توجهنا

أجل ، لقد كان توجهه في كل سبيل خيري على هدي العناية الإلهية ، التي عمته بالأسرار وغمرته بالأنوار ، مما جعله بمثابة الأب العطوف ، والمربي المؤانس المألوف الذي لا يألو جهدا في الدعوة إلى الله ، في تواضع العارف بالله .

ولا غرو ، فهو رجل تقوى وورع ، أخذ هذه السجايا من مشكاة رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« وكلهم من رسول الله ملتمس »

وقد ترك صدقة جارية تتمثل في زاويته العامرة - والحمد لله - وفي عين ستكون بمائها جارية قرب الزاوية بإذن الله . كما ترك أولادا صالحين يدعون له ، أولادا من صلبه ، وأبناء روحيين من قلبه ، وترك علما نافعا لكل مطلع عليه . تلكم بعض مآثر شيخنا الفاضل الشيخ عمر أبي حفص رحمه الله ، نزفها إليكم قراء جريدة الخبر الكرام بمناسبة ذكرى رحيله عنا وفراقه الذي ترك في القلوب والنفوس ماعبر عنه

بصدق - يوم توديعه إلى مثواه الأخير - أحد مريديه في مرثاة ، نكتفي منها بهذا المقطع ، وذلك المشهد المهيب الجليل :

« السلام عليك يا أبا حفص !

فقد أوحش منك الزمان ..

وأوحش منك المكان ...

وحلت الحسرة بموتك .. وعم الظلام بفراقك ..

فمن للعلم بعدك في فتح المعضلات .. ؟

وتوضيح المصنفات ..؟

ومن للعربية بعدك يجلي غموضها .. ويذلل دروبها .. ؟

فقد أزلت في « بسطك وتعريفك » كل إشكال ، ومحوت كل لبس ، وأحرزت فضل السبق ، وحزت المقام الأسمى ..

فمن يحاكي ماصنعت ..

ومن يطاولك فيما فعلت ..

ومن ينكر فضلك في الناس أو يجهل علمك في العالمين ؟!..

فلله درك من عالم !

كانت أيامك صحائف سجلت فيها جلائل الأعمال وعظائم المقاصد ..

ولله درك من عالم !..

عرضت عليك الدنيا بزخارفها فأبيت وأعرضت .....

لأن الإيمان عندك أحلى والعلم عندك أغلى ....

سلام عليك يا أبا حفص ، وقد اخترت الرحيل للقاء ربك وسرت تاركا من ورائك جموعا غفيرة جاءت لتشهد لك بالفضل ، وتذكر أياديك فيها ونعمك عليها » . لازلنا

نواصل الكلام على عرض نماذج من سيرة وأخلاق العلامة الشيخ عمر أبي حفص الزموري عليه رحمة الله .

وكان رحمه الله كثير الاعتماد على القدوة في تربية الرجال ايمانا منه بأن المرء إنما يؤثر في الناس بسلوكه وأعماله أكثر مما يؤثر بنصائحه وأقواله ، لذلك كان مثالا حيا لما ينبغي أن يجسده المسلم من خلق ، ونموذجا فذا لما يفرضه الدين من استقامة واهتداء ، يعامل كل واحد حسب استعداده ، مع التزامه بالدقة في تبسيط الحقائق وتمحيصها متدرجا في السمو الروحي إلى مقام الفيض بفضل ما اختصه به المولى عز وجل من فيض ومدد متواصلين ، واستطاع بفضل الله انعاش أرواح جلساء توسم في أصحابها السر ، وإيقاظ قلوب غافلة بمنأى عن كل حظ من حظوظ الدنيا كلها .

ويقدر ماكان رحمه الله متواضعا ، دمث الأخلاق ، لين العريكة ، إلى درجة أن مجالسه بالرغم مما كان يضفيها عليها من جديات يقتضيها المقام ، لاتخلو من انبساطات الصدر المنشرح الذي لايقبضه شيء من العوارض .. بقدر ما كان شديدا في الحق ، متشددا في الدفاع عنه ، دفاع من لم يكن يخشى في الله لومة لائم ، وهو ماتشهد له به تدخلاته في المجالس الرسمية ، وكتاباته المفحمة التي أثبت بواسطتها أن الولاء ينبغي ألا يكون إلا لله وحده ، من قبل العلماء المدركين لرسالتهم في هذه الحياة .

هذه بعض النفحات العطرة من سيرته مع الناس .. ومع الرجال ..

أما حاله مع ربه عز وجل ، فقد كان دائم التوجه إلى الله عز وجل وخير ما يبين ذلك بعض أبيات شعرية قالها رحمه الله :

يا ألهي دعاك عبدك ليلا	وهو يرجو منك العطايا الجزيلة
لاتخيب إلهي ظني فإني	قد نسبت لكم ونعم الفضيلة

إن رددت يـــدي وخيبت ظني	أي سمح أرجو وأية حيلة
كيف ربي يخيب من كان يرجو	ك ويظن بك الظنون الجميلة
الذل وأنت حبي ، وحسبـي	التمائي إليك وهو الوسيلة ؟

هذا باختصار عرض لأحوال ومناقب الشيخ عمر أبي حفص رحمه الله ، مما ترك لنا من مآثر ، وهو الذي عاش متعلما وعالما .. وجسد بذلك ماقاله الرسول صلى الله عليه وسلم في حديثه الشريف :

« إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : علم ينتفع به ، وصـــدقة جاريـــة ، وولد صالح يدعو له » .أو كما قال عليه الصلاة والسلام .

فمن خلال هذه الحقيقة النبوية الصادقة يتجلى مدى اتصال وتواصل عمل شيخنا الجليل عمر أبي حفص رضي الله عنه ، فقد ترك علما نافعا وأثرا عظيما سيتم نشره إن شاء الله .

ومن بين ماترك من أثر علمي نافع كتاب « فتح اللطيف في التصريف على البسط والتعريف » نشر في بداية شهر فيفري 1992م .

وهو كتاب يشرح منظومة الإمام المكودي المتوفي سنة 807 هـ الموافق 1404في علم الصرف المسماة بـ (البسط والتعريف) .

ويتميز هذا الكتاب يعني فتح اللطيف بإنزال مسائل العربية المعروضة في قالب يعسر اليوم هضمه الى قدرة استيعاب القارىء المعاصر ، والى الكيفية التي درج عليها أبناء اليوم في استقبال المعرفة على منهج يخالف مناهج الأوائل بكل تأكيد ، فهو بذلك جامع بين التراث والمعاصرة وهمزة وصل بين طرازين من الأجيال تباعدت بكثير من الإعتبارات.

وفي الكتاب أيضا ميزة طبعته وهي حضور شخصية المؤلف رحمه الله حضورا

قويا ، برغم كونه شرحا على متن آخر ، ففيه روحانيته المنسابة في كل مداخل البحث تستجليها بيسر وعفوية .. في اللفظ والعبارة والجملة والفقرة .

وكان الشيخ رحمه الله يتمنى ، في مدة حياته ، أن يرى الكتاب النور وهو على قيد الحياة ، لكن حالت دون ذلك عراقيل يعرفها من له خبرة بقضايا التأليف والطبع عندنا .

وإلى جانب هذا الكتاب المطبوع .. هناك مؤلفات أخرى مثل كتاب « دليل الحاج » في الفقه ، وكتاب « أبواب الجنان وفيض الرحمن في الصلاة والسلام على النبي المصطفى صلى الله عليه وسلم » وقد ختمه بقصيدة عصماء عنوانها « نور القدس في حضرة الأنس » تناول فيها أسرار سورة الفاتحة ، مطلعها :

ردن ذكر الحبيب علنا   إن ذكرناه نفوز بالمنى

ونقدم للقارىء ، ولو من باب التكرار ، مقطعا من مرثاة أحد مريديه يوم ووري التراب : « سلام عليك يا أبا حفص ، وقد ووريت الثرى وغيّبت عن قلوب كانت تحبك لأنك ملأتها علما وهداية فهي تتلهف عليك وتتحرق على فراقك الأليم وغيابك المفجع .

فمن لهذه القلوب بعدك يا أبا حفص ؟!

إن غيابك أحدث بها جراحا لاتندمل ، وأسقاما لاتمحى » .

وبالفعل فإن من ألف الشيخ عمر أبا حفص رضي الله عنه لايقوى على فراقه . وفي ختام حديثنا هذا عن سيرة وحياة ومآثر الشيخ العالم عمر أبي حفص الزموري رحمه الله وفي ذكراه الثانية من رحيله عنا وفراقه ، لانملك إلا أن نقول : إن فراقه لايعدو كونه جسديا ولو أن الأمر غير ذلك لما كان لمثل هذه الوقفة المتواضعة من معنى ...

فشيخنا أبو حفص من هذه القلة القليلة التي كتب لها أن تحيا بعد موتها وأن تخلد بعد رحيلها إلى جوار الله ورحمته...

ثم هو من الفئة المؤمنة القليلة التي لم ترض بالعيش وسط الأضواء البراقة ليقينه بأن أثره سيظهر في الناس بعد حين ، ولأن المرء إنما آثاره بعد موته ، وتبرز بعد رحيله ان كانت له آثار ، ومواقف يحيا بها ويخلد في الخالدين .

جريدة (الخبر)

الإثنين 18ماي 1992م

الموافق لـ : 16 ذو القعدة 1412 هـ

الذكرى الثالثة لوفاة الشيخ أبي حفص
نابغة في فنون العربية وعلوم الدين

في اليوم العاشر من شهر ماي سنة 1990 انتقل إلى رحمة الله ورضوانه الشيخ عمر أبو حفص الزموري عن عمر يناهز السابعة والسبعين ، أفناه في طاعة الله ، وخدمة العلم والدين ، في تواضع العارفين بالله المدركين لخطورة رسالة العالم الوارث للنبي صلى الله عليه وسلم ، مصداقا لقوله صلى الله عليه وسلم : « العلماء ورثة الأنبياء » ، أولئك العلماء الذين تشبعوا بروحه صلى الله عليه وسلم ، وتأدبوا بآدابه ، وعملوا على تربية وتنشئة طلبتهم ومريديهم على تلك الآداب . وفي هذا المعنى يقول الشيخ عمر الزموري في إحدى مذاكراته التي تفيض بها مجالسه الموصوفة بقوله : « مجالس أسرار ، مشارق أنوار ، عناية قهار ، بها قد توجهنا » .

يقول رحمه الله : (... من لم يأخذ أدبه عن المتأدبين أفسد من يتبعه ، يعني أفسد نفسه ، وأفسد من يتبعه . فلا بد من الأخذ عن المتأدبين بأدب الباطن ، المتنورين بنور الله سبحانه وتعالى ، المشرقة بواطنهم بنور النبي صلى الله عليه وسلم ، لأنهم في الحقيقة ورثة النبي صلى الله عليه وسلم الحقيقيون .

وإذا كان من المتعارف عليه دينا وشريعة أن أقوال النبي صلى الله عليه وسلم وأفعاله حفظها المحدثون ، فإن الأمر بالنسبة لأحواله غير ذلك . ذلك أن من تلك الأحوال مايورث ، وما هو مختص بالنبي صلى الله عليه وسلم وإذا تحدث بها المحدثون ، فإن كلامهم لايفيد لأنها أحوال شأنها التلبس بحال يشابه حال النبي صلى الله عليه وسلم : « قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله .. » الآية) .

وفي معرض الحديث عن المتوجه إلى الله يقول رضي عنه : (... لابد أن يكون منور القلب في الباطن ، مملوءا بسر الله سبحانه وتعالى ، حينئذ تتجدد له الأحوال ، وتتجدد له المقامات ، وتتجدد له مسالك يسلكها ، يرى في كل نَفَس حقوقا لله سبحانه وتعالى ، ويرى فيه أسرارا عجيبة لله سبحانه وتعالى . في كل نفس ، وفي كل لحظة ، لهذا تصير اللحظة الواحدة بمثابة ليلة القدر « ليلة القدر خير من ألف شهر » الآية .

إنها اللحظة التي يجتمع فيها القلب برحمة الله تعالى وبنوره ، وينفتح ، « مايفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها » الآية ، إذا فتح المولى عز وجل الرحمة فلا ممسك لها ، وثمة رحمة الله يفتحها لعبادة القاصدين بالنية الصادقة ، والإخلاص في الأقوال والأفعال والأحوال .

وفي معرض توضيحه لخصوصيات الأحوال واستغلالها إلا على العارفين بالله يقول رحمه الله : (... لايستطيع الإنسان أن يذوق حلاوة الأحوال ، وهي توصف لـــــه ، كما لا يستطيع المرء أن يتذوق طعم العسل بمجرد الوصف ، فالوصف غايته التشويق ، وعليه فإن كتب التصوف كـ « الأحياء » للإمام الغزالي ، و« الرسالة القشيرية » للقشيري ـ رضي الله عنهما ـ لاتفيد في جعل قارئها متلبسا بأحوال القوم ، ذلك أن محتواها صار مجرد حكايات تصف لك ، ولاتستطيع أن تجعلك لابسا تلك الأحـــــــوال ، فعلى الراغب في تذوق حلاوة تلك الأحوال أن يجعل أحوال العارفين لباسا له : « ولباس التقوى ذلك خير » الآية . فانظر كيف عبر عن ذلك رب العالمين ، وكيف يصبح لباس التقوى لباسا حقيقيا ساترا للقلب ، واقيا من الشرك ، وواقيا من جميع المخـــلوقين .

وليس المقصود بالشرك الكفر الذي يتقيه كل مؤمن فحسب ، ولكن المقصود كل

مايشغل المرء عن مولاه ـ سبحانه وتعالى ـ ويباعده عن المقام ، وعن الرقي في مراتب الكمال ، واتقاء المخلوقين ، والمخلوقات وحتى الكون ، وهذا الإتقاء لايعني اجتنابهم ، وإنما يرمي إلى عدم الإفتتان بهم ، وهو ماينسحب حتى على المباحات : « يا أيها الذين آمنوا لاتلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ، ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون » الآية لمع أن الأموال والأولاد من نعم الله غير المنهي عنها ، إلا أن الإفتتان بها خطر نبه إليه المولى) .

هذه مقتطفات مقتضبة من إحدى مذاكرات الشيخ الكثيرة التي ماكان مجلس من مجالسه يخلو منها ، يشنف بها آذان المتحلقين باستمرار حوله ، ويربي بها قلوبهم ، ويجلي بها نفوسهم بأسلوب المعلم المربي ، المدرك لخفايا النفوس وخباياها ، الآخذ بالأيدي في حنان الوالد المتشبع بتعاليم الإسلام السمحة ، كل ذلك في فيض رباني ، وبأسلوب نوراني يصدر عن صاحبه بطريقة عفوية تلقائية بعيدة عن حب الظهور والشهرة . ولاغرو فقد عاش ـ رحمه الله ـ طوال عمره بعيدا عن الأضواء ، مؤديا رسالته في حب واجتهاد ، والتنقل عبر مختلف جهات الوطن للتربية والتدريس ، بيد أن آثاره ـ رحمه الله ـ مافتئت منذ رحيله الجسماني إلى العالم الأخروي ترى النـــــــــــور ، وتظهر إلى الوجود . ففضلا عن مقالاته المنشورة في الصحف الوطنية ، فقد طبع إلى حد الآن من كتبه كتابه النفيس « فتح اللطيف في التصريف على البسط والتعريف » [1] والمجموعة الأولى من رسائله [2] التي نأمل إن شاء الله أن تتبعها مجموعات أخرى لتثري المكتبة العربية الإسلامية ، وتسهم في تنشئة الأجيال الصاعدة على الإسلام مستقى من منابعه الصافية .

ولكن .. هل يفي مقال مختصر بحق هذا العالم الفذّ ؟ كلا ، إن علامة في مقام

الشيخ عمر أبي حفص بشخصيته المتعددة الجوانب ، ونبوغه في فنون العربية وعلوم الدين لجدير بأبحاث جامعية أكاديمية لإبراز جوانب فكره الثري ، وعصاميته في التحصيل ، ومنهجه في التربية ، فهو علم من أعلام الجزائر بحق : « يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي وادخلي جنتي » صدق الله العظيم .

جريدة (المساء)

الثلاثاء 12 ذو القعدة 1413 هـ

الموافق لـ 4 ماي 1993 م

الهوامش :

(1) : « فتح اللطيف في التصريف على البسط والتعريف » ، صدر في فبراير من عام 1992 م عن ديوان المطبوعات الجامعية في الجزائر .

(2) : « من رسائل العلامة عمر أبي حفص الزموري » ، صدرت في فبراير من عام 1993 م عن ديوان المطبوعات الجامعية في الجزائر .

بعض مانشر في الصحف الوطنية حول صدور مؤلفه :
(فتح اللطيف في التصريف على البسط والتعريف)

عرض كتاب : (فتح اللطيف في التصريف على البسط والتعريف)

صدر عن ديوان المطبوعات الجامعية في مستهل شهر فبراير 1992م كتـــاب (فتح اللطيف في التصريف على البسط والتعريف) للعلامة المرحوم عمر بن أبي حفص المعروف بالشيخ عمر بوحفص الزموري .

وقد عرّف الكتاب بما يلي :

« يعتبر هذا المؤلف أول شرح لمنظومة العلامة الإمام المكودي رحمه الله ، آخر من درس كتاب سيبويه بفاس » .

والمنظومة المذكورة على أهميتها لايعرف لها شرح يستوفي مضمونها الجليل حتى قيّض الله لها الأستاذ المرحوم عمر أبا حفص الذي انبرى لشرحها وفك مغلقاتها وتقريبها إلى شداة علم اللغة العربية بالبحث العميق الشامل والعبارة السلسة والحجة الواضحة ، مما جعله مرجعا لايستغني عنه الطالب المتعطش لهذا الفن خاصة ، وعلوم اللغة العربية عامة ، والباحث المتخصص .

فجزى الله مؤلفه عن طلاب العرفان خير جزاء وأحسنه وأدومه ، وجعله له بمثابة الصدقة الجارية والعلم النافع .

يقع الكتاب في 434 صفحة من الحجم المتوسط ، وهو كتاب نفيس يتضمن أبحاثا دقيقة في فن الصرف الذي يعالج بنية الكلمة من حيث صحة حروفها وإعلالها وإدغامها ومن حيث أوزان الكلمات واستعمالاتها وما إلى ذلك .

وهو من هذا المنظور يعتبر من أمهات الكتب التي لايمكن للطالب أو الباحث أو المتخصص في علم اللغة العربية أن يستغني عنها .

وقد قدم المؤلف ـ رحمه الله ـ الكتاب بأسلوبه العذب السلس الذي يذكر قارئه

بأسلوب العلماء العاملين العارفين فكان مما ورد في خطبة الكتاب : « وسميناه بفتح اللطيف في التصريف على البسط والتعريف وقدمنا الفن في العنوان إشارة إلى أنه هو المقصود في الإظهار ، ولهذا جعلنا شرحه أول مايتجلى به المراد من غير نظر لما يليق بالمتن حسب الانظار وسمينا هذا المقدم بسطا فناسب مايرام من تلك الأقوال وأوردنا فيه مفردات كثيرة من أصول مواد اللغة وفسرناها فاتضحت بذلك الأمثال ، وصححناه بنقول صحيحة عن الأعلام ، غالبها من كتاب سيبويه الإمام ، وحسناه بأبحاث وتعليلات فتجلى فيه بذلك وجه الجمال ، واستوفينا ماذكره الإمام من أبنية الأصول والمزيد ، وكذا أمثلتها مع تفسير معانيها اللغوية غالبها من القاموس المحيط كما ستراه وإن شاء الله متحفا بتفصيل سديد ، وقررنا مهم مسائله بالتخليص والترتيب ، فكمل كل الكمال ثم حللنا المتن بتحليل اتصل بأجزائه ، على غريب السبك وعجيب النوال وسميناه بالتعريف ، فتمت الموافقة في الشرح والمتن والعنوان فزاد بذلك حسنا وبيانا ، وان اقتصرنا في الباب الأول لوضوحه على التعريف ، وكذا في الآخر لأنه مقرر لدى أهل التأليف ، فكان بهذا التوفيق من المولى الكريم ، ذي الفضل العظيم ، على ظاهر التعريف من الحفظ جناحان ، وفي باطن البسط من الكشف عينان تجريان ، والله الولي الحميد ، العلي المجيد » . إن هذا القبس المستدل به يمنح القارىء الكريم صورة واضحة عن أسلوب العلامة المرحوم عمر بوحفص ، ومنهجه العلمي الدقيق وحرصه على انتقاء المفردات والعبارات التي تقرب المعنى من أذهان المتلقين وتجعل المراد في متناولهم ، من هنا يأتي الكتاب إضافة نورانية تثري المكتبة الجزائرية ، وتدعم مؤلفات أعلام الجزائر من العلماء الربانيين العاملين الذين كرسوا حيواتهم لخدمة الدين وإفادة المتعلمين والمريدين من غير ابتغاء للشهرة والظهور بل طلبا لمرضاة رب العالمين . وعلى الرغم من

أن المؤلف رحمه الله قد أنهى تأليف الكتاب منذ مايناهز الأربعين سنة (!) ، وعلى الرغم من أن له مؤلفات أخرى ستري النور إنشاء الله في حينها ، إلا أن حياته كعالم رباني وكإمام في مسجد (سيدي رمضان) بحي القصبة العتيد من سنة 1956 إلى سنة انتقاله إلى جوار ربه (1989) قد مرت في خمول ولكن مصداقا لقول القائل رحمه الله :

ليس الخمول بعيب	على امرىء ذي جلال
فليلة القدر تخفى	وتلك خير الليالي

هذا ، ومن جانب آخر فإن الكتاب يشكل لبنة حقيقية في مجال التقارب الثقافي بين الجزائر والمغرب ، وذلك أن المنظومة منطلق الكتاب ، تنسب للإمام المكودي المغربي رحمه الله آخر من قام بتدريس كتاب الإمام (سيبويه) بمدينة فاس في القرن السابع الهجري ، ومهما يكن فإن مضمون الكتاب وأبعاده المختلفة من صرفية ولغوية وروحية لايمكن استيفاء حقها في عجالة كهذه وإنما المراد تقديم لمحة بسيطة عن هذا العمل الجليل ، على أن تتناوله أقلام المتخصصين بالتقديمات الكافية والتعريفات الشافية إن شاء الله .

جريدة (الخبر)

العدد (381)

الثلاثاء 4 فيفري 1992 م

عالم وكتاب : العلامة عمر بن أبي حفص الزموري (1913م/1990م)
وكتابه (فتح اللطيف في التصريف على البسط والتعريف)

تعززت المكتبة العربية في غرّة شهر فبراير 1992 م بكتاب جليل يطوي عنوانه مضامينه (فتح اللطيف في التصريف على البسط والتعريف) للأستاذ العلامة الشيخ عمر بن أبي حفص الزموري عليه رحمة الله ورضوانه .

وحق للمكتبة العربية في كل البلاد الناطقة بالضاد أن تحتفي معتزة بهذا المكسب الجليل لأن الظرف مؤاتيها للإستظهار به على أنه حجتها على الطاعنين على العربية ، لذهاب العهد بما يستحق وصف المرجعية العلمية ، وللأستاذ أبي عالم كالعلامة الأستاذ أبي حفص ألقت إليه العربية برقابها ، وأسلته أزمتها واستحق أن يقول فيه كثير من علماء مصره بلسان الحال والمقال : « لو حضر سيبويه مجالسه لأخذ النحو من فيه » .

والحقيقة نقول أن كتاب (فتح اللطيف) كما نعرفه يتميز على غيره من الكتب الموضوعة في جميع الفنون بكونه صورة لعقلية مؤلفه العلمية ، ولمنطقه المتناسق في معالجة قضايا العلم بشكل عام ، ولئن يصعب في كثير من الأحيان تحديد الشخصية العلمية لكل مؤلف خلال مايضم من كتب ، وكنت تستطيع إلى حد ما الفصل بين الكاتب والإنسان من خلال فروع تبتينها في العمل المنجز فإن الأمر بخلاف ذلك بخصوص الكتاب موضع الحديث ، فهو صورة بالغة الصدق عن قمة علمية كالعلامة أبي حفص ، من حيث تناول مسائل البحث والنظر فيها .

فمضمون الكتاب فيض من فيوضه وليس فيه ما أدعو به إلى أدوات أخرى لم تكن طوع يمينه قبل التصنيف وفي ابانه وفي أعقابه ذلك أنه تخرج على المرحوم الأستاذ أحمد بن قنور رضي الله عنه وكان عالم زمورة بل عالم القطر بتمامه وكان

رجلا لايجارى في علم العربية وفي علوم كثيرة وتصدى بعد التخرج للتدريس وهو بعد شاب يافع ، وناظر الفحول من معاصريه وهو شاب يافع كذلك وأظهر إمكانات جبارة كانت إرهاصات لتقدمه وبزه الأقران .

بذلك استجماعه لأدوات التأليف والمناظرة ومطارحة العلوم في سن مبكرة عزلت كثيرا من أترابه عن هذا المقام ، وتقدم هو بهذا الشكل الهائل الذي جعل منه إماما لايجارى ، وحبرا لايبارى .

وليس كثيرا على من هذا وصفه أن يتعطف على منظومة الإمام المكـــــــودي (ت 807 هـ-1404م) في علم الصرف المسماة بـ(البسط والتعريف) بالشرح والبيان والتعقيب والتقرير ، وليس كثيرا على من يقول فيه أستاذه « المعادن لاتخيب » أن يكون هذا الكتاب بعض آثاره الدالة عليه ، والناس بعده بين ناظر إلى الأثر وبين الأثر نفسه .

وليس من معنى لإقباله على التصنيف في علمي النحو والصرف بهذا القلم المتخصص وهو يجيد العلوم الأخرى ، بالإضافة إلى براعته فيها سوى وَلوعه رحمه الله واعتنائه بهما بشكل ملحوظ يعرفه عنه كل من ضمته مجالسه وفي حافظة طلبته أكثر من ذكرى في هذا الشأن تعود كلما عاد ذكره وحضر الفكر فيه حضور مقيم لايظعن .

من جليل ماتذكر شاهدا في سياقنا ودليلا على طول باع الأستاذ رحمه الله في فنون العربية أنه استضيف يوما بقسنطينة مع جماعة من علماء القطر منهم العلامة الصالح الأستاذ المولود مهري ، فجرت مذاكرات كثيرة كان فيها القطب المستقطب ، ذهل لها الحضور ولم يخف أحد إكباره ، إلا أن بعض من عز عليهم الإقرار بالفضل

اعترضه بمسألة من العربية اتخذ القرآن حيثية لها ، صورتها أن سأل عن إعراب لفظ (والطير) ووجه نصبه في قوله تعالى : « ولقد آتينا داود منا فضلا ياجبال أوبي معه والطير » (سبأ / الآية 10) .

ولم يكن الحديث جاريا في النحو ولا في الإعراب مما فسر بسوء القصد ، أعرض الأستاذ بادىء الأمر عن الرد ولكن الرجل ألح في اعتراضه ولج فانبرى له بالجواب الذي لم يتوقعه ، وأثبت له أن لامانع من حملها على المفعولية المعترض عليها لوجود العامل والشاهد عليها من نصوص النحاة ، وأبطل مزاعمه بكون القرآن الكريم على رأي بعض المفسرين خلوا من المفعول معه بما معناه أن المسألة نحوية لايؤخذ فيها بأقوال المفسرين إلى أن أنجرت المذاكرة إلى طرق الإستدلال في كل العلوم ، وكيفية استقصاء المسائل ومسالك العلماء في ذلك ؟ واتضح بها أن تلك القضايا كانت من الجديد الذي استفاده المعترض وغيره ، ثم عرف له قدره في الأخير ، فكان جوابه لأحد من عمد إلى تقديمه على الأستاذ في بعض مراسيم الضيافة « لا والله ماسبقته لهذا !! » .

بعض مزايا الكتاب

يتميز كتاب (فتح اللطيف) بإنزال مسائل العربية المعروضة في قالب يعسر اليوم هضمه إلى قدرة استيعاب القارىء المعاصر ، وإلى الكيفية التي درج عليها أبناء اليوم في استقبال المعرفة على منهج يخالف مناهج الأوائل بكل تأكيد ، فهو بذلك جامع بين التراث والمعاصرة وهمزة وصل بين طرازين من الأجيال تباعدت بكثير من الإعتبارات.

ولقد شنف سمعي خبر الكتاب أول مرة وهو مخطوط ، وبالنظر إلى قمة المؤلف التي لاتطاول خلته بدوره ذروة لاتلحق عسرا واستغلاقا ورأيتني كما روي عن أبـــي

عثمان المازني (ت 249 هـ) أنه قال : قرأ علي جل كتاب سيبويه في مدة طويلة ، فلما بلغ آخره قال لي : أما أنت فجزاك الله خيرا ، وأما أنا فما فهمت منه حرفا ، على أن الذي وقفت عليه بعناية الأستاذ رحمه الله أثلج صدري ، ومن علي بما حسبتني منه محروما .

وترتيب الكتاب وتنظيم أبوابه وإن كان لإلتزام طرح المتن فيه شيء من الأثر فإنه كذلك صورة لفكر الأستاذ العلمي الذي يختار للمادة بابها ، ويفصل للباب فصوله ، ويبني الفصول على أنساق تقارب بينها ، وأن تسرب إليها بالإستطراد ماليس هو من العربية أو من الصرف خاصة بالضرورة .

ولم يخل بنظام الكتاب أبدا أن يكون فيه الصرف وغير الصرف ، وأن تحضر اللغة من حيث هي شواهد أو مواد للتطبيق على مسائل النظم ، أو استقراء لمعاني الشاهد المستجلب ، وأن يحضر العروض لما يحتاج إليه في بيان زحاف أو علة طرأ على بيت ما ، وأن يحضر النقد لما يعترض البحث رأي عالم من العلماء انفرد به على ضعفه في ميزان النظر ، يعترض عالم على آخر في مسألة ما ، فيقتضي المقام بيان وجه الإشكال ، ثم منشأ الإعتراض ، ثم تحديد الإصابة في أي الأقوال أصاب الحقيقة !

وفي الكتاب ميزة طبعته هي حضور شخصية المؤلف حضورا قويا ، برغم كونه شرحا على متن آخر ، ففيه روحانيته المنسابة في كل مداخل البحث ، تستجليها بيسر وعفوية في اللفظ والعبارة والجملة والفقرة ، وفي تجرده للعلم وكلية انقطاعه إليه ، فلقد فرغ له على امتداد عمره وما زمن تأليف هذا الكتاب إلا حلقة واصلة موصولة في تلك السلسلة الزمنية المتلاحقة الأطوار ، المتماثلة الأطوار ، وفيه أخلاقه وأدبه الجم مــع

العلماء لما يختار غير مايذهبون إليه ، ويناقش بعض مايعرضون ، وفيه موسوعيته التي لم تستطع وحدوية الموضوع أن تكبحها ، وفيه جده ووقاره اللذان تحلت نفسه بهما في كل أطوار حياته ، وقد ازدان بهما الكتاب واتشع ، فكانا سبيله إلى امتلاك ناحية البحث والإقتدار على ترويض أمواج النظر ، والتوفيق إلى إيصال المسائل إلى مقارها ، ليثمر هذه الزبدة التي اختمرت ذات يوم في صدر جبل كان يمشي بين الناس ، وليخرج إلى الأنام متتوجا جبارا يجلس على عرش العقول سلطانا يدير المالك ، ويرعى بعين العز الحواشي والمماليك ، وتحيطه عناية الإيمان والعلم بكل سياج ، ويتمازج في سيرته الموت والحياة فلا يبحث له عن أثر ، لأن الأثر قائم في جميع الأحوال وبجميع المعاني التي يفهمها من يعقل لغة بني آدم .

هذا ولقد كان الإنصاف من النفس يدعو إلى الوقوف دون ركوب القلم إلى مملكة الأستاذ المصونة ، وكان اللائق أن أكتفي بما عقبت به صفحات وطوايا (فتح اللطيف) اشتممها كمن لايملك من سبيل الإعجاب إلا الصمت ، ولكنني أردت من عبارة العرفان رقابتها ، ومن معاني الوصال المتجدد عناقها ، فكانت هذه الجرأة .... وحسبي أن يلتمس لي عذر الأخوة والمودة !!

*جريدة (النصر)

الأربعاء 6 رمضان 1412هـ

الموافق لـ: 11 مارس 1992م

كتاب جديد : فتح اللطيف في التصريف على البسط والتعريف

هذا كتاب نفيس ، للعلامة عمر بن أبي حفص ، المعروف بالشيخ عمر بوحفص الزموري ، عليه رحمة الله ، الولي الصالح ، صاحب الفيض والبركات ، كان قد انتهى من تأليفه منذ نحو أربعين سنة ، وقد حاول طبعه (كما نقرأ في التنبيه) مرارا ، ولكن الظروف لم تساعد ذلك إلى هذا التاريخ من عام 1992 م عن ديوان المطبوعات الجامعية .

هذا الكتاب هو بحث نفيس فيه أبحاث دقيقة في فن الصرف للطلبة والمتخصصين . قدم له الأستاذ مهري المولود بقوله : (أما بعد فقد أطلعني الأخ الروحي الأستاذ الشيخ عمر أبو حفص على تأليفه النفيس المسمى (فتح اللطيف في شرف البسط والتعريف في علم التصريف) للإمام المكودي شارح الألفية ، فسرحت النظر في رياضه ، ومتعت الروح بأزهار فصاحته وبلاغته ، فوجدته مرصعا بأبحاث شريفة ، وتحقيقات نفيسة بأسلوب جذاب ، فأصبحت به قواعد التصريف سهلة المنال لجميع الطلاب ، وقد كان هذا الفن مستعصيا على الأفهام لتشعب مسائله ، فلا يتوصل لتحقيقها وإدراكها على الوجه الأكمل إلا الجهابذة الأعلام ، ولم يكن لهذا المتن النفيس شرح فيما نعلم سوى شرح وجيز مخطوط للعلامة الجليل الشيخ عبد الكريم الفقون القسنطيني فرغ من تأليفه أوائل صفر من عام ثمانية وأربعين وألف ، فبقي هذا المتن غير معروف ، إلى أن قيّض له الأستاذ الأخ الشيخ عمر أبا حفص فشرحه بهذا الشرح الجليل ، وأخرجه للحياة .

منهاج الشرح

ولأن الشيخ العارف بالله ، عمر أبي حفص الزموري ، عليه رحمة الله ، كان ملما بهذا

العلم ، فقد قسم شرحه إلى قسمين : أما القسم الأول فقد توسع فيه توسعا كبيرا لخص فيه مسائل هذا الفن ، وهذبها بأسلوب عجيب ، وأورد فيه مفردات كثيرة من أصول مواد اللغة وقسرها فاتضحت بذلك الأمثال وتوجها بنقول صحيحة غالبها من كتاب سيبويه والأئمة الأعلام ، وسمى هذا القسم بسطا .

والقسم الثاني (التعريف) وقد اقتصر فيه على حل ألفاظ المتن ، وشرحه بإيجاز مع السبك العجيب وسمى هذا القسم بالتعريف ، فتم الإنسجام والموافقة بين العنوان والمتن والشرح ، فتجلى بذلك جماله وحسنه ، وعظمت فائدته ونفعه .

الأصل في « البسط والتعريف »

بعد أن أوضح الأستاذ مهري المولود قيمة هذا الكتاب ، وطريقة شرحه ونفعه ، وقيمته ، عرج على أصل هذا الكتاب فقال : (ونسخة نادرة الوجود ، ألفه عالم كبير ، وهو إمام العلماء الأعلام أبو زيد الشيخ عبد الرحمن بن علي بن صالح المكودي نسبة لبني مكود ، قبيلة قرب فاس كانت دارهم دار علم وصلاح وعدالة ، وكان بارعا في العلوم كلها ، وهو آخر من قرا كتاب سيبويه بفاس ، وله تآليف عديدة منها هذه المنظومة التي سماها (البسط والتعريف) ، والتي جمع فيها زبدة علم التصريف ، ومنه شرحه على ألفية ابن مالك ، الذي عم النفع به قديما وحديثا ، وله شرح آخر أكبر منه ، قيل لم يكمل وقيل أحرقه حساده ، وله شرح آخر على المقصور والممدود لابن مالك أيضا ، وشرح على مقدمة ابن أجروم ، وله مقصورة في مدح النبي محمد صلى الله عليه وسلم ، ومنها نظم ذكر فيها ما عرب من الألفاظ العجمية ، وقد أخذ عنه غير واحد من العلماء الأعلام منهم العلامة ابن مرزوق الحفيد العجيسي نسبة إلى القبيلة الجزائرية العظيمة عجيسة المقيمة بجبال المسيلة ، وقد انتقلت أسرة ابـــــن مرزوق

العجيسي إلى تلمسان في أواخر القرن السادس الهجري صحبة العارف الشهير والولي الكبير الشيخ أبي مدين الإشبيلي .

ويجمع ابن مرزوق والشارح (عمر أبا حفص) نسب واحد ، والذي ينتهي إلى فاطمة الزهراء إبنة الرسول الأعظم محمد صلى الله عليه وسلم .

معنى التصريف

التصريف علم بأصول يعرف بها أحوال أبنية الكلم التي ليست إعرابا ولا بناء موضوعه الأسماء المتمكنة والأفعال المتصرفة ، وأما الحروف وشبهها فلا تعلق لعلم التصريف بها ، ولهذا قال الإمام ابن مالك رضي الله تعالى عنه في الخلاصة :

حرف وشبهه الصرف برى   وماسواهما بتصريف حرى

وينقسم التصريف إلى قسمين : تصريف الأسماء وقد تكفلت به كتب النحو ، وتصريف الأفعال ، وينحصر في ستة أشياء وهي الزيادة ، الإبدال ، الحذف ، القلب ، النقل ، الإدغام ، وواضع هذا العلم هو معاذ بن مسلم ، كما أن واضع علم النحو هو أبو الأسود الدؤلي بأمر الإمام علي كرم الله وجهه ، وفائدته الإحتراز من الخطأ اللساني ، والتمكن من الفصاحة التي هي من أسس علم البيان الذي يتوصل إلى معرفة إعجاز القرآن والإطلاع على بعض أسراره التي عجزت عن الإحاطة بها عقول جميع الخلق .

في علوم اللسان العربي

هذا عنوان الفصل الخامس والأربعين من المجلد الأول من تاريخ العلامة ابن خلدون ، ارتأيت أن أشير إليه لما لهذا الرأي من أهمية وصواب في نفع النحو العربي وعلاقته بالمحافظة على القرآن الكريم ، واهتمام العرب المسلمين بهذا العلم الذي كانت

لهم فيه مصنفات وشروح ، بل هو واحد من أركان اللسان العربي ، على رأي ابن خلدون وهي أربعة : اللغة والنحو والبيان والأدب . ومعرفتها كما يقول ـ ابن خلدون ـ ضرورية على أهل الشريعة ، إذ مأخذ الأحكام الشرعية كلها من الكتاب والسنة ، وهي بلغة العرب ، ونَقَلتُها من الصحابة والتابعين عرب ، وشرح مشكلاتها من لغتهم . فلا بد من معرفة العلوم المتعلقة بهذا اللسان لمن أراد علم الشريعة .

ولما كان الشيخ المرحوم العلامة عمر أبو حفص ورعا تقيا ، عارفا بالله ، فقد اختار لنفسه هذا المنهاج . وهو الذي حفظ القرآن الكريم في صباه عن أخيه الفاضل حامل القرآن العظيم السيد محمد والولي الصالح السيد علي بن عم الأب معلم القرآن الكريم وعاش حياته معلما ناصحا ، إماما للناس ، بل شاعرا وبلغيا فصيحا يخاف الله أينما حلّ وارتحل .

الشيخ الزموري شاعرا

فضلا عما سبق التنبيه إليه من تمكّن شيخنا من علوم القرآن والبيان والشرح والتفسير والوعظ والإرشاد والحل والترحال وتعليم الناس أسباب دينهم ودنياهم ، وجولاته في الجزائر والتعرف على شيوخها وأفاضل الناس فيها ، فقد كان شاعرا متصوفا ، له الكثير من الشعر الذي يزمع أبناؤه جمعه ونشره ، فضلا عن الكتب الأخرى العديدة التي لم يقيّض الله لها الحياة بعد . أما شعره فهو شعر المتصوفين العابرين الناسكين ، المتعلقة قلوبهم بالله ورسوله الأعظم محمد صلى الله عليه وسلم ، تعبق فيه رائحة الإخلاص والتضرع لله الواحد القهّار ، كما في قوله :

يا إلهي دعـــاك عبـــدك ليلا ... وهو يرجو منك العطايا الجزيلة
لاتـخـيب إلـــهي ظنـي فإني ... قد تسببت لكم ونعـم الفضيـلة
ان رددت يـــدي وخيّبــت ظني ... أي سمـح أرجو وأيـــة حيـــلة

كيف ربي تخيب من كان يرجو ... ك ويظن بك الظنون الجميلة
الذل وأنت حبي وحسبي ... انتمائي إليك وهو الوسيلة

هذا غيض من فيض .. من الشيخ عمر أبي حفص العلامة الولي الصالح ، عليه رحمة الله ورضوانه .

جريدة (الشعب)
الثلاثاء 12 رمضان 1412هـ
الموافق لـ : 17 مارس 1992م

من ثمرات المطابع : كتاب « فتح اللطيف في التصريف على البسط والتعريف » للعلامة عمر بن أبي حفص الزموري

حضرتني ، وأنا أنوي ، بعون الله ، الإسهام بجهد المقلّ في التعريف بكتاب العلامة العارف بالله الشيخ عمر بن حفص الزموري ، قدّس الله سرّه ، حضرتني مقولة لأحد المفكرين النقاد مفادها مامعناه أن القارىء لأثر أدبي أو علمي ما ، إنما يكون مبعث إعجابه به إحدى الفوائد الثلاث :

* تثبيته لمعلومات يمتلكها فيأتي الأثر ليؤكدها .
* تصحيحه لمعلومات كان المتلقي يعتقد بصوابها فإذا الأثر يبين أوجه خطئها .
* إفادة المتلقي بمعلومات جديدة كان يجهلها .

وإني ، وأنا أتصفح هذا الكتاب الجليل الأثر ، أجد هذه الفوائد كلها مجتمعة فيه وأزيد ، ففضلا عما يتضمنه من معلومات ولطائف تؤكد وتصحح وتفيد بما لم يكن يخطر على البال ، ففيه علاج لأدواء اللسان ، وإثراء لملكات اللغة والبيان ، وشفاء لأمراض الجنان ، في أسلوب شيّق رائق ، قوامه الطلاوة والحلاوة ، يذلل الصعب ويفك مستعصياته ، ويقرب الأبعد ويختصر مسافاته ، ويأخذ بيد القارىء ولبه ، مبتدئا كان أو متخصصا ، في أثناء الكتاب ، برفق ولين ، ليفتح له مغاليق هذا « الفن » فتحا لطيفا في حضور صاحبه عليه رحمة الله ورضوانه ، بشخصيته السمحة ، وشمائله ولطائفه ، وأخلاقه الدمثة ، وقوة حجته وعلومه التي اختصّه بها الله ، ولا يحصيها إلا هو عزّ وجلّ .

فالكتاب صورة حية للنفحات الربانية التي كانت تعطر مجالسه النورانية « مجالس أنوار ، مشارق أسرار ، عناية قهّار ، بها قد توجهنا » كما عبر عن مثل تلك المجالس ذاته يقول سيدي أبو العباس المرسي رضي الله عنه : « كلام المأذون له

يخرج وعليه كسوة وطلاوة ، وكلام الذي لم يؤذن له يخرج مكسوف الأنوار » .

إنها حقيقة يستحضرها كل من له اتصال بالعارفين ، أو يكنّ لهم محبة المخلصين وهو يسرّح ناظريه في ثنايا كتاب « فتح اللطيف » ، ويشحن قلبه بفيوضات صاحبه الربانية ، فالكتاب بالرغم من كونه متخصصا في « فنّ الصرف » وعلوم اللغة العربية التي تناولها بأسلوب شائق مشرق ، إلا أنه مكسو بخصائص نابعة من ذات مؤلفه المغمورة بالأنوار الربانية المفعمة بالأسرار القدسية ، معسل بطلاوة تسبي الألباب ، وحلاوة تزدان بها مختلف الفصول والأبواب وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ..

كتاب تم الإنتهاء من تأليفه منذ أكثر من أربعين عاما ، وكان الإطلاع عليه مقصورا على فئة محدودة من ذوي ومريدي الشيخ رضي الله عنه ، وتلامذته المقربين ، وبعض الساعين في طبعه ، إلى أن شاءت القدرة الإلهية أن يظهر وينشر لتعم الفائدة وتتم العائدة ، وكان ذلك في مستهل هذا العام من سنة 1992 عن ديوان المطبوعات الجامعية .

وما لم يكد يمضي على طبعه شهران حتى كادت طبعته الأولى تنفد .. فهو حقا فتح لطيف في مجالات يدركها من أنعم الله عليهم بتذوق اللطائف والرقائق ومن بين أبعاد الكتاب ، كونه تجسيدا للتعاون الحقيقي بين البلدان المغاربية في المجال الثقافي لاسيما مايتصل منه بتراثها الزاخر . فقد انطلق المؤلف رحمه الله ، من منظومة « البسط والتعريف » للعلامة المغربي المرحوم الشيخ عبد الرحمن بن علي بن صالح المكودي ، آخر من قام بتدريس كتاب « الإمام سيبويه » بمدينة فاس في غضون القرن السابع الهجري .

والعلامة المكودي ـ رحمه الله ـ مؤلفات أخرى منها شرحه لألفية ابن مالك ، 65

وشرحه الآخر على المقصور والممدود لنفس المؤلف، وشرحه على مقدمة ابن أجـــــروم، ومختصر في مدح النبي عليه أفضل الصلوات وأزكى التسليم.

وقد أخذ عنه العديد من العلماء الأعلام كالعلامة ابن مرزوق الحفيد العجيسي الذي يجمعه بالشارح سيدي عمر أبي حفص رحمهما الله نسب واحد، لأن كلا منهما من قبيلة «عجيسة» الشريفة الشهيرة هذه، كرة أخرى، عجالة مقصر ومتطاول، ينشد تجلية أهمية هذا النتاج الذي جاء ليثري المكتبة العربية، وستتلوه إن شاء الله مؤلفات أخرى للمؤلف أو عنه، منها على سبيل المثال، رسائله الثلاث التي ستصدر عن قريب بإذن الله في كتاب واحد وهي:

* المبادىء الأولية في التوحيد والفقه على مذهب الإمام مالك رضي الله عنه.
* دليل الحاج.
* أبواب الجنان، وفيض الرحمن في الصلاة على سيِّد ولد عدنان.

نفعنا الله به آمين.

جريدة (الجمهورية)
السبت 23 رمضان 1412 هـ
الموافق لـ:28 مارس 1992م

في رحاب ليلة القدر

بسم الله الرحمن الرحيم

ليلة القدر ليلة مباركة ، جليلة القدر عند الله سبحانه وتعالى ، وتتبوأ مكانة مرموقة في قلوب المسلمين ، وقد خصها المولى عز وجل في كتابه العزيز الذي أنزل فيها بسورة كاملة هي (سورة القدر) إلى جانب ورود ذكرها في غيرها .

ولقد تناول الشيخ عمر أبو حفص رضي الله عنه هذه السورة الجليلة بتفسير مرتجل ومزدوج أي ذي شقّين : ظاهري و باطني ذوقي وذلك ضمن المذاكرات التي ينور بها مجالسه ،وتم إيراد الشرحين في هذه المجموعة الميمونة تعميما للفائدة مع الحفاظ على الأسلوب المبسط مثلما جاء في المذاكرة الآنفة الذكر .

والله ولي التوفيق

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة القدر ، هذه السورة الكريمة تبشر بأن الله سبحانه وتعالى خص ليلة القدر بفضل عظيم ، فهي خير من ألف شهر ، وهي في كل سنة . هذه النعمة العظيمة صارت ثابتة ، تشهدها كل سنة، فهي لم ترفع ، أما ما قيل عن رفعها فإنه رفع لما يتعلق بتعيينها ، ذلك أن هناك من قالوا برفعها ، أي أنها كانت مرة واحدة ثم رفعت ، وهذا قول ضعيف ، والصحيح أنها لم ترفع بدليل قول النبي صلى الله عليه وسلم (إلتمسوها في العشر الأواخر) أو كما ورد في الحديث الشريف . غير أنه أختلف حول ما إذا تكون في شهر رمضان فقط أو تكون في غير رمضان ؟ وحسب مذهب الإمام مالك رضي الله عنه أنها تدور في جميع العام والغالب أنها في رمضان، وقد كنت أرى رأي الإمام مالك قبل الإطلاع على هذا القول المنسوب إليه . إنه الرأي الذي إطمأن إليه قلبي ، ولهذا هناك من يراها في شعبان تارة في النصف من شعبان بينما يرى الإمام مالك - كما ذكرنا - أنها تكون في سائر السنة ، تنتقل تارة تكون في رمضان وأخرى في غير رمضان غير أن الغالب وقوعها في شهر رمضان المعظم .

أما الإمامان أبو حنيفة والشافعي رضي الله عنهما فإنهما يقولان بأنها تكون في رمضان فقط غير أن قول الإمام مالك رضي الله عنه هو الأولى ، والنبي صلى الله عليه وسلم قال (قد رفعت)

وأما استدلالهم بقوله تعالى (إنا أنزلناه في ليلة القدر) أي القرآن ، وبقوله تعالى

(شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن) أي أن القرآن أنزل في رمضان ، وفي ليلة القدر ، فهذا لا يصرح بأن تلك الليلة تبقى في رمضان، وما يدريك أنها كانت في

ذلك العام في رمضان ، وصارت في غيره في غير رمضان ؟ ذلك أن المولى جل وعز لم يقل إن ليلة القدر لاتكون في غير رمضان وإن كان وقت نزول القرآن قد وافق رمضان في ذلك العام . وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم ما مؤداه (خرجت وأنا أريد أن أخبركم بليلة القدر ، فتلاحى رجلان فرفعت) أي تخاصما فرفعت ، فإنه يشير إلى هذا المعنى وإن كان البعض يقول بأن الرفع يعني تعيينها ، والنبي صلى الله عليه وسلم قد قال في حديث شريف أخر (فالتمسوها) أي إطلبوها رجاء إدراكها ، ولم يقل إنها باقية في العشر الأواخر ، لأن إلتمسوها معناه تعرضوا لفضلها ، وأما لو كانت في العشر الأواخر قطعا ، لقال النبي صلى الله عليه وسلم إنها في العشر الأواخر ، فالتزموا هذه العشر الأواخر لتدركوها . فقوله التمسوها يعني إذن إطلبوها عسى أن تجدوها ، لأن الغالب أنها تكون في رمضان ، والغالب أنها تكون في الأثار ، وعليه فإن قول الإمام مالك رضي الله عنه هو الحق، هو على كل حال إمام الأئمة ، ويقول إنها تدور في العام ، والغالب أنها تكون في رمضان وفي غير الغالب قد تكون في غير رمضان . وقوله تعالى (إنا أنزلناه في ليلة القدر وما أدراك ما ليلة القدر) أي أنزلنا القرآن من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا في ليلة القدر ، تلك الليلة المباركة . أنزله الله سبحانه وتعالى إلى بيت العزّة في السماء الدنيا ثم أنزله مفرّقا على النبي صلى الله عليه وسلم بحسب الوقائع في ثلاث وعشرين سنة ، وفي هذا إشعار برفعة النبي صلى الله عليه وسلم وبما أُعْطِيَهُ ، وبرفعة القرآن العظيم ورفعة ليلة القدر .

(إنا أنزلناه) أي ابتدأنا إنزاله من اللوح المحفوظ في ليلة مباركة ، هذه الليلة المفضلة هي خير من ألف شهر لنزول القرآن فيها ، فهي تتشرف بنزوله ، وتتشرف بالمدح وهو مايدل على سرها ، وكذلك القرآن تتجلى كرامته ويتجلى فضله لما قـــــال

المولى جلّ وعــزّ (إنا أنزلناه في ليلة مباركة) ليلة فيها خير عظيم متزايد ، ليلة القدر التي هي خير من ألف شهر ، مما يدل على شرف عظيم للقرآن الكريم ، وللنبي صلى الله عليه وسلم ، ولليلة القدر التي أنزل فيها القرآن العظيم على النبي صلى الله عليه وسلم في ثلاث وعشرين سنة كما هو معلوم . أما كيفية تلقي سيدنا جبريل عليه السلام للقرآن من المولى عز وجل ، فهي كيفية لايعلمها أحد ، ولايستطيع أن يعلمها باللسان وإنما أخذ القرآن مما أوحى إليه الله عز وجل . إذ أن سيدنا جبريل عليه السلام لادخل له في كلام الله سبحانه وتعالى ومايقوله البعض من أنه عليه السلام تلقى المعنى من المولى عز وجل ثم عبَّر عنه ، فهو قول يدلّ على قلة أدب هذا القائل وعدم تحقيقه في مقام التوحيد ، لأن هذا القول يدل على عجز المولى سبحانه وتعالى عن ذلك علوّاً كبيرا ، فكأنه عاجز ، واحتاج إلى جبريل عليه السلام ليترجم عنه وهذا بعيد ، ويدل أيضا على أن هذه الألفاظ صارت لجبريل عليه السلام ومن ثمّة فهي غير مُتَعَبَّدٍ بها ، مع أن القرآن مُتَعَبَّدٌ به باعتباره كلام الله ، ومن هذا القبيل ماقال البعض من أن النبي صلى الله عليه وسلم عبَّر عنه ، والحقيقة أن النبي صلى الله عليه وسلم تلقاه كما أنزل عليه (فإذا قرأته فاتبع قرآنه) الآية . فما عليه إلا الإتباع ، وليس عليه إختراع الألفاظ . أما ماورد بأن هناك كاتبا كان يكتب الوحي عند النبي صلى الله عليه وسلم ، ويقول له النبي عليه الصلاة والسلام تارة مثلا (غفور رحيم) فيجيبه : يارسول الله أكتبها (عزيز حكيم) فيقول له النبي صلى الله عليه وسلم مامعناه إكتب فكلها قرآن . فكان أن ارتدّ ذلك الكاتب والعياذ بالله بسبب ذلك ، إذ قال إني أصرِّف محمداً كيف أشاء ، بينما الحقيقة غير ذلك ، إذ أجاب العلماء عن تلك الحالة بما هو حق قائلين بأن القرآن الكريم أنزل بأساليب مختلفة ، وأن الكاتب المذكور قد صـــادف

وقت كتابته نزول الوحي على النبي صلى الله عليه وسلم فإذا قال مثلا (عزيز حكيم) فذلك تم وقت تجلي الوحي للنبي صلى الله عليه وسلم ، فهو عليه الصلاة والسلام مخيَّر بشأن الوحي المتعلق بتلك الآية الكريمة في أن يثبته (عزيز حكيم) أو (غفور رحيم) ، وكل مافي الأمر أن ذلك كان معياراً للكاتب المذكور ، وطردا له عن كلام الله لما توهم ما توهَّم ، وعلى هذا قلنا بأن القرآن كلام الله العزيز الحكيم ، تلقاه سيدنا جبريل عليه السلام بالمعنى واللفظ ، لا كما يقول البعض أو يقول المعتزلة بأن الله خلقه في شجرة كما يقولون في حق سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام خلق الله كلامه في شجرة . لا ، إن هذا بعيد . أو كما يقولون مثلا خلق المولى جلّ وعزّ الألفاظ وعبر عنها سيدنا جبريل عليه السلام . والحقيقة أن جميع الأئمة يقولون إن القرآن كلام الله ، وقد وقعت لهم إمتحانات كثيرة من طرف المعتزلة وكفى بالإمام البخاري مثالا إذ أُخرج من بلده لما سئل عن القرآن هل هو كلام الله أم لا ؟ فقال إنه كلام الله ، بينما يقول المعتزلة بأن هذه الألفاظ التي نقرأها لها أوائل وأواخر ، فهي منتهية والمنتهي لايكون من صفة القديم . ولكنهم مايدرون أن هذه الألفاظ وهذه أصواتنا ولكن الموجود عند المولى جلّ وعزّ غير هذه الأصوات وغير هاته الألفاظ ، وإنما الألفاظ والأصوات التي نذكرها دالة عليه ، كما قالوا :

إن الكلام لفي الفؤاد وإنما ... جُعِلَ اللسان على الفؤاد دليلا

ولهذا قلنا أن النبي صلى الله عليه وسلم يتلقى القرآن من سيدنا جبريل عليه السلام ، الذي يتلقاه بدوره من المولى عزّ وجلّ . أما كيفية التلقّي فهي مجهولة ، يعني ينكشف له وتقع الألفاظ والمعاني عنده فيتنزل بها ، وقد قال المولى عزّ وجلّ (طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى) ، ولم يقل (ماخلقنا) ، وقال سبحانه وتعالى (إنّا نحـــن

نزّلنا الذكر) ، ولم يقل خلقنا الذكر . فهو تنزيل ولكن لايلتبس بأصواتنا التي ندركها .
أما هذه الألفاظ فنقول لو كُشِفَ الحجاب عن قلوبنا مثلا وسمعنا كلام المولى جلّ وعزّ
فإننا نسمع هذه الألفاظ لكن ليس بأصوات ولا بحروف وإنما نجدها هي التي نقرأها .
نجدها هي هي . وقد وقع كما قلنا إمتحان لكثير من الأئمة من جملتهم الإمام البخاري
رضي الله عنه الذي أُخرِجَ من بلده لتمسكه بالقول بأن القرآن كلام الله (إنا أنزلناه
في ليلة القدر وما أدراك ما ليلة القدر) الآية . أي ما أعلمك يامحمد ما ليلة القدر ؟
وهذا تعظيم لها وتشويق لخبرها ولما فيها من الأسرار والأنوار بوصفها خيراً من ألف
شهر . (تنزّل الملائكة والروح فيها) الآية ، تتنزّل الملائكة عليهم السلام ويسلمون على
المصلين والقائمين والقاعدين . إلا على العصاة من مدمني الخمر وقاطعي الرحم وآكلي
لحم الخنزير مثلا فهم لايسلمون عليهم ، ويسلمون على المؤمنين فقط ويقولون لهم :
السلام . أي المولى جلّ وعزّ يقرئكم السلام ، وهذه بشارة عظيمة بالأمن والكرامة عند
الله سبحانه وتعالى . واختُلِف في الروح فقيل إنه جبريل عليه الصلاة والسلام وعلى
نبينا أفضل الصلوات وأزكى التسليم ، وقيل الروح طائفة من الملائكة . وقيل هو خلق
عظيم رأسه تحت العرش ورجلاه تحت الأرض السابعة ، له ألف رأس ، في كل رأس
ألف وجه ، كل وجه طباق الدنيا . في كل وجه ألف فم ، في كل فم ألف لسان ، كل
لسان يسبح الله تعالى بألف لغة . كل لغة لاتشبه الأخرى ، يخلق الله سبحانه وتعالى
لتلك اللغات خلقا يسبحونه ويقدسونه بها ، وقيل أن هذا الملك عندما يفتح أفواهه
بالتسبيح تخترّ الملائكة سجدًا لله سبحانه وتعالى لئلا يحرقهم بأنواره . فهذا نور عظيم
ينزل في هذه الليلة المباركة . وقيل الروح هو سيدنا جبريل عليه الصلاة والسلام ، وقد
قلنا أنه يأتي بأربعة ألوية (تنزل الملائكة والروح فيها ، بإذن ربهم) الآية . تنزل الملائكة

عليهم الصلاة والسلام فوجاً بعد فوج بإذن الله جلّ و عزّ (من كل أمر) يعني مـــن أجل كل أمر قضاه الله وقدّره ، وقد قلنا أن المولى جلّ و عزّ يقضي الأمور ويقدرها أي يظهرها للملائكة عليهم الصلاة والسلام ، وأما قضاؤه فهو أزلي قديم ليس له ابتداء ، وإنما يظهره للملائكة في ليلة النصف من شعبان ، ثم تدفع الصحف في ليلة القدر إلى الرؤساء الأربعة وهم سيدنا جبريل عليه السلام ، وسيدنا ميكائيل وسيدنا إسرافيل وسيدنا عزرائيل عليهم الصلاة والسلام وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام .

(سلام هي حتى مطلع الفجر) الآية ، أي ليلة القدر هي سلام وأمن كثير ، وقيل سميت سلاماً لكثرة تسليم الملائكة عليهم الصلاة والسلام ، وهي أيضاً لا حرّ فيها ولا برد ، وفيها يقلّ نهيق الحمير ونباح الكلاب ، ويرى من كشف الله له الحجاب فيها كل شيء ساجداً لله سبحانه وتعالى ، ناطقاً بلسان المقام لابلسان الحال ، وينبغي لمن أطلعه الله عليها ألا يكشفها ، وإذا صادفها القائم فله أجر عظيم ، ولكن الذي يراها أفضل وإن كان القائم يأخذ أجره على كل حال . هكذا تكلمنا بحسب ما يقتضيه الظاهر على كل حال ، إذ ينبغي لكل عارف أو طالب لمعرفة الله سبحانه وتعالى أن يكون عارفاً بما يقتضيه ظاهر القرآن ، لأنه حصن به يتحصن به ، ونحن لانريد أن نغير التفسير الظاهري للقرآن ، وإنما هناك إشارات يأخذها العارفون ، باعتبار القرآن الكريم والأحاديث النبوية وجميع ما في الكون كله يشير إلى الله سبحانه وتعالى (قل انظروا ماذا في السموات والأرض) الآية ، وإذا كان كل ما ومن في السموات والأرض يشير إلى الله سبحانه وتعالى ، فكيف بالقرآن الذي نُزل من حضرة الرحمـــن ؟ (الرحمن علّم القرآن) الآية . إنه شيء عظيم وهو ما أردنا أن نتكلم عنه بطريق الإشارة في هذا المقام .

(إنّا أنزلناه في ليلة القدر وما أدراك ما ليلة القدر) الآية ، فالعارف يكون في ظلمة ، فـــي ظلمة المجاهدة ، وفي ظلمة السير ، وفي ظلمة المعرفة ، فالمعرفة لها ظلمة ، لأن النور إذا كثر على الإنسان ، فإنه يحجبه تارة ، ولابد له من سر يكشف له ذلك ، إذ تارة يحجبه ذلك النور فلا يبصره ، فالأضواء إذا كثرت على ضعيف البصر ، فإنه لا يبصرها ، ألا ترى أن الخفّاش لايبصر نهاراً ، فالأضواء إذا كثرت تعمي ، فيصير الناظر إليها في ظلمة وفي عمى .

(إنّا أنزلناه في ليلة القدر) الآية ، وهذا العارف بحسب السير ، أو المجاهد لنفسه مثلا كلاهما في ظلمة ، لكن ظلمة المجاهد غير ظلمة العارف ، فظلمة العارف ناتجة عن كثرة الأنوار ، وظلمة المجاهد السائر مبعثها كثرة الحجب ، لأنّ له حجبا كثيرة ، فهو لازال بعيداً عن الأنوار ، فلا يصح له أن يجلس مجلس الأحرار، بل ينبغي أن يجلس مجلس العبيد ، لأن مجلس الأحرار لايجلسه إلا من مُتِّع بالأسرار ، وهو مجلس مستقيم من قبل المولى عزّ وجلّ ، يصير صاحبه حراً عند ذاك ، عارفا به ، ويكون غيره خالي القلب ، فهذه الحرية ، حرية إطلاق ، ليس لها تقييد ، ولا يحجبها أحد ، بل هي مسيطرة على جميع الكائنات لأن هذه الحرية مددها من الله سبحانه وتعالى وهو القوي المتين فمن عارضها يُخاف عليه من سلب الإيمان ، يسلب إيمانه وتسلب معرفته من حيث لايشعر ، فليس هذا من باب الكلام ، يتكلم الإنسان ويقول هذا مقام وهذا مقام وهو في الحقيقة لم يُمدَّ بتأييد إلهي فهذا يفتضح ولاشك ولاينتفع وإن بقي في المعارضة فقد يسلب من الإيمان كما قلنا فضلا عن المعرفة ، وهناك كثير ممن سلبت أحوالهم بحسب المعارضة ، وما ذلك إلا لأنهم يصادمون نور الحق .. ونور الحق إذا جاء لايُبقى من الظلمة شيئا ، وإذا جاء الحق زهق الباطل ، إن الباطل كان زهـــوقا

(إنّا أنزلناه في ليلة القدر) الآية ، فالعارف يكون لكثرة المعارف في هذه الظلمة ، ولكن ذلك السرّ الذي يخرق الأنوار ويجعلها طرقاً ويجعلها فجاجا ويجعلها أبوابا ويجعلها خزائن ويجعلها بيوتا ويجعلها أسلحة ويجعلها صدورا ويجعلها قبورا ، هذا السرّ الذي يجعل قلوب الأحرار قبوراً للأسرار يعني مملوءة بسرّ المولى جلّ وعزّ ولكن لاتضيق بهذه الأسرار بل هذه الأسرار تتزايد ولا تنقطع فتخرق تلك الأنوار . فالعارف مادام مشتغلا بذلك النور فهو في ظلمة وليلة القدر هي أن يُخرق ذلك النور وتأتي الأسرار من عالم الغيب ، من المولى عزّ وجلّ ، من القوي المتين ، هذا تنزّلٌ من قبل السلام ، من قبل المولى عزّ وجلّ ، من قبل الأمن ، من قبل الطمأنينة ، طمأنينة النفس والإكرام . هذا تنزّل من عند السلام ، من عند المولى جلّ وعزّ (تنزّل الملائكة) الآية ، والملائكة بحسب الظاهر معروفون هم أجسام نورانية لا يأكلون ولا يشربون ولا يتغوّطون ، لايوصفون لابذكورة ولا بأنوثة . وقد وقعت لي رؤيا للملائكة عليهم الصلاة والسلام منامية ورأيت خلقتهم ولكن بمجرد النظر لمن ينظر إلى الملك يعرف أنه لايوصف لا بالذكورة ولا بالأنوثة بمجرد النظر إلى الوجه . الوجوه مستنيرة ولكن ثمّ سر يدخل القلب يعرف أنهم لايوصفون لابذكورة ولا بأنوثة (تنزّل الملائكة والروح فيها) قلنا العارف يكون في سيره في عالم النور لأن العارف لايسير بغير النور إذ لابد له من أنوار ولكن هذه الأنوار قد تغطي على قلبه وتحجبه باعتبار أن للقلب بصراً كبصر العين . والعين تحجبها الأنوار القوية ذلك أن العين تكلُّ إذا دققت النظر في نور الشمس وكذلك العارف إذا كثرت عليه الأنوار يكلُّ قلبه منها ويعجز عن تحملها فيصير في ظلمة أي أن الأنوار تصير بالنسبة إليه ظلمة ، وقد يظهر هذا عجيباً حيث يصير النور ظلمة ولكن لاعجب لأن القوة قوة المولى عزّ وجلّ لاقوة النور ولا قوة الظلـــمة ،

ومادامت القوة إلهية فأينما وجدت فثمّ النور الحقيقي ، وهذا الذي كان يسير بالأنوار قد يضعف حاله بسببها ولكن الله عزّ وجلّ يمده بليلة القدر ، ليلة القلوب ، ليلة تجلى الحقائق السماوية ، الحقائق الإلهية بكشف خاصٍ لابكشف عام . فالعارفون يعرفون تلك الليلة ويدركون أنها ليلتهم وأنها لاتتقيد بسنة بل إننا لاندري فلعلها تكون كل يوم ، وإنما بحسب النفحات الإلهية لأن نَفَسَ العارف على حسب السنة أو أكثر ، فنفسه أطول (وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون) الآية ، هو عند رب العالمين سبحانه وتعالى فنفسه حينئذ أطول من سنة ، ويومه أطول من سنة ، فهذا العارف إذا كان في هذه الليلة ، وأحاطت به الأنوار من كل جهة يمده المولى جلّ وعزّ بكنز السرّ ، وذلك السر يخرق تلك الأنوار ويجعلها طرقا وأبوابا وخزائن رحمة تنبعث منها القوة إلى قلب العارف فيصير هو نورا قاهرا لتلك الأنوار لكنه لايرى بواسطة النور بل عن طريق السرُ لأن الحكم لمقام السرّ ، فيراه من عالم الخفاء لا من عالم النور ، فهذه الليلة حينئذ ليلة مباركة ولذلك أُخفيت خوف الحسّ ، أخفاها المولى جلّ وعزّ كما أخفى الولي ، وكما أخفى الصلاة الوسطى وكما أخفى ساعة الإجابة . هذا هو السر من عالم الخفاء وهذا يناسب ليلة القدر حيث أنها أخفيت وهو من عالم الخفاء إذا أمده المولى عز وجل من عالم الخفاء بالروح تتنزل الملائكة ، ويتنزّل الروح ، وينفخ فيه روحا قوية ، وحياة جديدة فيصير حيا حياة جديدة وإن كان هو عارفا ، ولكن يصير يستغفر مما تقدم ، ويستغفر من المقامات المتقدمة ولهذا قيل في حق النبي صلى الله عليه وسلم وقوله (إني لأستغفر الله سبعين مرة في اليوم) أو كما ورد ، قالوا ذلك بحسب المقامات كلما ترقى إلى مقام أدرك فضله بالنسبة للمقام السابق وهكذا بحسب المقامات عندما يتجلى له المولى عز وجل بتلك المقامات . فالعارف إذا كشف له السر وأمده الله

بفيض من عنـــده فإن ذلك الفيض يخرق تلك الأنوار ويجعلها كل شيء بعد أن كانت حاجبة وبمثابة الظلمة للعارف . ولذلك يتقيد الكثير بذلك النور وهم في الحقيقة محجوبون به عن الرقي ومن الكمال ، لأنهم لو نفخت فيهم الروح ، إذ لابد من نفخ الروح (تنزّل الملائكة والروح) فإنهم يكونون أحياء بعد أن كانوا موتى ، يكونون عارفين بعد أن كانوا جاهلين وموصولين بعد أن كانوا مقطوعين ومقربين بعد أن كانوا مبعدين وأحباء بعد أن كانوا أعداء وهذا من الفضل العظيم (يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم) الآية ، (وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا) الآية . فلذا تتنزل على قلب العارف لتمده في جميع المقامات ، وفي جميع الحالات وليكون حيا حياة جديدة في كل لحظة لأن الروح لها تطورات ولها الأفق الأعلى وهي دائما في العلو فيرى قوة الله سبحانه وتعالى كما روى الشيخ سيدي شمس الدين الحنفي رضي الله تعالى عنه قال : كان ثمّة شخص ولعله بمصر ، وكان شيخا عظيما مشهورا وله كرامات عظيمة ، وقد أقيم حفل حضره ذلك الشيخ وجماعة من الفقراء معه ولما اجتمعوا قالوا : هذه الحفلة لاتتم إلا بحضور سيدي محمد الحنفي ، فجيء إليه فلما وصل إلى الباب قال : استأذنوا لي ، لأن من عادة الفقراء أن لا يدخلوا على إخوانهم إلا بإذن ، هذا من الأدب . قال : خصوصا إذا كان فيهم أحد كبير ، فأذنوا له ، فجاء إلى هذا السيد وهو من كبار العارفين فجلس إزاءه وبقي ذلك العارف يباسطه لأن العارف كان مشهورا في حين أن سيدي شمس الدين لم يشتهر آنذاك ولم يتبين حاله فقال له ذلك العارف : ماتقول في رجل رحى الوجود بيده يديرها كيف يشاء ؟ وهو بذلك يشير إلى نفسه لأنه أعطي التصريف . فقال له سيدي محمد الحنفي رضي الله عنه : ما تقول في رجل وضع يده عليها فتوقفت عن الحركة ؟! عندئذ ردد العارف عبارة

الله أكبر وقال : إذن كنا نسلمها له ! فالتفت الشيخ شمس الدين إلى من حوله وقال لهم : ودعوا صاحبكم فإنه منتقل يعني منتقل إلى الآخرة . وفي تلك الليلة كلف أحدهم ليأتيه بالخبر فسمع البكاء آخر الليل ، إذ توفي في تلك الليلة بالفعل . والشاهد هنا أن التصريف تصريف الله ، واليد يد الله فمن زعم أن الشيء بيده يقلبه كيف يشاء أو يصرفه كيفما أراد فقد أخطأ ويُخافُ على نفسه لأنه مازال في عمى . (تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر) الآية ، هذا قلنا كل أمر يحتاج إليه العارف ، يطلعه الله عليه في تلك اللحظة ، يطلعه على مقامات السائرين وعلى مقامات الأولياء الأحياء والأموات ، ويضع كل واحد على قدر مرتبته ولو شكره ألف إنسان كما قال سيدي شمس الدين الحنفي لما اعترض عليه شخص وكان مستندا إلى بعض كبار الأولياء قال : « مزقناه كلَّ ممزق ولو كانَ معه ألف ولي » ألف ولي أو أكثر ، ذلك أن الحكم لله (له الحكم وإليه تُرجعون) الآية ، وكان الأمر كذلك فقد أهلك وعوقب . ولهذا الولي سيدي شمس الدين مستطرفات وكرامات كثيرة من جملتها ما قيل أنه كان شخص يسمى المناطح ، وكان أميرا ، يناطح الناس في حضرة السلطان ، وكان يهشّم رأس كل من يناطحه باعتباره جبارا متعديا فبعث إليه سيدي شمس الدين محمد الحنفي ليعظه فلم يقبل وقال للمبعوث : قل لشيخك أن يقعد في زاويته وإلا ذهب إليه من يكسر رأسه . ولما أخبر المرسول سيدي محمداً الحنفي بذلك لم ينطق ولم يعلق ولكن عندما حلّ الليل كشف ذلك الشخص عن رأسه وصار ينطح الجدران حتى كسَّر رأسه ، هذا شيء تجلى له في الجدران .

وجاءه ذات مرة أحد الفقهاء وكان قاضيا « نحكي هذا من بعض المستطرفات التي عرف بها العارفون لأن العارفين كما قلنا لايتقيدون في تحدثهم بواقعة بل يتبعون

الحياة ، يرى طريق الخير وطريق الشرّ ويرى الحياة الحقيقية التي ترفعه عن جميع الطوائف لماذا ؟ لأنه صار مُمَدّاً من الحق سبحانه وتعالى ، فهو نظرة الحق سبحانه وتعالى لاينبغي أن يلتفت إلى شيء بل يتوجه إلى المولى جله وعزّ (فولّ وجهك شطر المسجد الحرام) الآية لاتلتفت إلى اليمين أو إلى الشمال بل توجه إليه ، التوجه إلى البيت توجه إلى المولى سبحانه وتعالى فهو متوجه إلى الله عز وجل ، مربوط مع ذلك النور وذلك السر ، لأن هذا التوجه بحسب الحسّ لامعنى له ذلك أن الجهات مثلا متساوية وكلها ملك لله سبحانه وتعالى ، ولولا أن الله أمدّ مكة المشرفة بهذا السرّ المكنون ماتوجهنا إليها ، لأنها بناء كأبنيتنا ، في جهة كجهتنا وفي أرض من أرضنا ولكن أمدها بسر خفي فمن تعرض إليها (ومن دخله كان آمنا) الآية ، ولكن من تعرض إليه يُخافُ على نفسه كما وقع لأصحاب الفيل (ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيا ألم يجعل كيدهم في تضليل) الأيات ، لما تقدموا إلى حرم الله سبحانه وتعالى ، وعلى هذا العارف يتوجه بقلبه إلى المولى جل وعز وفي ذلك التوجه سر عظيم هذا التوجه قلنا إلى مكة المشرفة بحسب الظاهر لافضل لها إلا ما يذكر لفظاً ولكن لايظهر إنما هي جهة من الجهات ، بقعة من البقاع ، ولكن لسرّ ثمة خفي ، فعلى الإنسان أن يتوجه فقط والسر يمده به المولى عزّ وجلّ ، وعليه أن يكتفي بالوقوف بالباب ومن لزم الباب فُتح له ، يلازم الباب ويلازم الإمتثال والأدب ولا يتحول عن الباب أما الذي ينتقل من حالة إلى حالة فإنه لاينتفع ، فلا بد من ملازمة الباب الحق ، الباب الذي تفيض منه الرحمة ، باب الرحمة (ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى) الآية ، هو دائما أعمى ويبقى كذلك في كل حالة ، لما يعرض عليه يكون أعمى (قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها) الآية ، هذه أسرار المولى عز وجل وأنواره منبثة

في خلقه ومنبثة في الملا الأعلى كما (تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم) تنبث تلك الأسرار والأنوار ، ليلة القدر ، وهذا معرض عنها وهي من عالم الخفاء ، تتنزل الملائكة في هذه الليلة المباركة ، فلابد من الملازمة ولهذا قال صلى الله عليه وسلم (التمسوها في العشر الأواخر) واظبوا عليها والقوها دائما . العشر الأواخر للإنسان ، لحظاته دائما في كل حين ، كل لحظة لها أخير يلازمه في كل لحظة لابد أن لايترك آخرها ، كل نفس في آخره لايتركه ، لاينقطع لغير التوجه إلى الله سبحانه وتعالى فيلتمس ليلة القدر بها (التمسوها في العشر الأواخر) اطلبوها في العشر الأواخر فهي منبثّة .

أما هذا الذي ينتقل مثلا فكيف له أن يلتمسها والنبي صلى الله عليه وسلم يقـــــول (التمسوها) واظبوا عليها وداوموا واثبتوا ، لابد من المواظبة ولابد من الإمتثال لأن الإمتثال كالحارس يقيه من المهالك لأن له موانع والإمتثال هو حبل بينه وبين المربي الذي يقدم له الحبل ليصعد به ، يكون في الأسفل وعندما يمسك بذلك الحبل يرفعه إلى العلو وإذا عزف عن التمسك فإنه لايسمو ولايرتفع ، ثم بعد التمسك بالحبل لابد من التمسك بالآداب أما إذا بقي أثناء التمسك يلتفت يمينا وشمالا ، ولعله في الهواء فيسقط على أم رأسه فيهلك ، هو مرفوع إلى العلو ومع ذلك ينظر إلى الأسفل فإنه يُرد إلى الحضيض يطرد أو يبعد . أحب العمى ولم يحب النور ، أحب الجهل ولم يحب العلم فهذا يطرد . ولهذا قلنا لابد من ملازمة الأدب ومن الإمتثال . ولهذا فإن الملائكة عليهم الصلاة والسلام يسلمون في ليلة القدر على كل أحد إلا مدمن الخمر لأنه لم يمتثل ولم ينته وقاطع الرحم كذلك . هذا ، وقلنا إذا كان العارف بالله في هذا المقام ، مقام السر ، يلزمه الأدب والإمتثال والثبات إذ لابد من الثبات فإذا صار ينتقل من حالة إلى أخرى فذلك يدل على عدم الإخلاص والمولى عزّ وجلّ لايرفع عبداً إلا بإخلاصه ولو قدم من

العمل . هذه تعتبر صلة عظيمة إذ يجب على الإنسان أن لايقطع الرحم . وإذا تكلم العارف وقال مثلا أنا كذا أو كذا إنما ذلك إذنٌ إلهي . يتكلم بالإذن وهو ليس في قلبه شيء حيال فلان أو فلان لأن كل واحد في حقيقته ، وإنما هو يتكلم بحسب إلقاء الله سبحانه وتعالى ، لأن العارف بإمداد الحق ، قلوب العارفين مرتقبة على حضرة القرآن ، على حضرة الله سبحانه وتعالى تنتظر مايرد عليها ، ولهذا ينتقلون تارة من مسألة إلى مسألة ، ألا ترى أن القرآن يتكلم تارة في الذكاة ثم يتكلم في الصلاة ثم يتكلم في البيوع ، نعم والآية هذه غير الآية تلك لماذا ؟ لأنه من التنزيل الإلهي لا من الكسب البشري ، كذلك العارف يتكلم من التلقي الإلهي ، ويتكلم بحسب التلقي الإلهي ، وعلى هذا قلنا يسير جميع المشائخ كلهم رحماً ، بل جميع الخلق ، بل جميع الموجودات ويصير العالم السفلي شعرة من العالم العلوي ، ويصير الإنسان شعرة من العالم العلوي والسفلي . ألا ترى أن الملائكة تنزل إلى العالم السفلي لو لم يكن رحم بيننا ، لو لم يكن ترابط يعني رحم معنوي لماذا تسلم عليه الملائكة عليهم الصلاة والسلام ولكن ثمّة رابط بين السماء والأرض والتحام بينهما وبين العالمين العلوي والسفلي فلذلك تتنزل الملائكة عليهم الصلاة والسلام . وهكذا العارف لابد أن يكون كذلك في العالم العلوي والعالم السفلي ، ينظر إلى العالمين والكل حقيقة واحدة . غير أن مقام التفصيل يعطيه ، ففلان مثلا مرتبته كذا وعلان مرتبته كذا . ليلة القدر يفصلُ فيها كل شيء (تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر) ، من كل أمر مفصل عند المولى جلّ وعزّ ومبين ومحدد يحدده المولى جل وعز . ولو أنه هو يرى هذه قطعة واحدة ، وهذا رحم واحد ولكن مفصل ، هذا مقام وذاك مقام ، هذا مقام أحياء أو مقام أموات والكون كله يراه (سلام هي حتى مطلع الفجر) . إلى أن يطلع الفجر

، وتغيب ليلة القدر ، ويرجع حينئذ إلى مقام آخر ويترك ليلة القدر لأن المولى عز وجل أخفاها وجعلها عزيزة لاتأتي إلا بمقدار فهي تنزل بمقدار محدد ، مرة في الثانية ، فالعارف كما قلنا تنزل مرة عنده ولكن لحظاته بمثابة سنوات (وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون) الآية . لأن الحياة كلها إذا خلت من ذكر الله فقدت معناها ، والساعة التي فيها ذكر الله خير من سنة ، ولهذا هناك ساعة يستجاب فيها الدعاء ، تلك الساعة التي نختار فيها ذكر المولى عز وجل خير من جميع الساعات . وهذه الليلة قلنا مختصة والمولى جل علاه يخفيها عن العارف ، فالعارف لايكتسبها . ليلة القدر يقدرها المولى جل وعلا ، وهي تحديد من الله سبحانه وتعالى ، هو الذي يحدد لا العارف ولا يكتسبها العارف مثلا بالرجوع إلى الواردات فهو لايستطيع أن يقول فيها شيئا لولا أن التحديد يقع من الله سبحانه وتعالى ويكتب بقلم القدرة ، بقلم النور ، من مداد السرّ . وهذا في ليلة القدر وعليه فإن العارف كما قلنا لايستطيع أن يكتسبها ، كل مافي الأمر أنه يرتقبها دائما في الأنفاس ، لايغفل عن أنفاسه ، وربما ارتقبها في العشر الأواخر إن غفل في أوله ، والأحسن أن لايغفل في أول النفَس . وإذا حدث أن غفل في أول النفس ارتقى في الأخير لأن الأمور بأواخرها ، ألا ترى أن الإنسان إذا أكل ولم يبتدىء ببسم الله الرحمن الرحيم ثم تذكر وذكر البسملة في آخره فإن الشيطان يتقيأ ما أكل ، فإبليس لعنه الله يتقيأ ما أكله عندما يتذكر الإنسان في آخر الأكل إن غفل لا عمدا وسمّى باسم الله الرحمن الرحيم . وقد يقول البعض لافائدة في تقيؤ الشيطان ولكننا نقول إن فيه فائدة لأن ذلك الأكل مثلا يضعفك أنت وبتقيؤه فإنك تضعفه أنت ، تجعله ضعيفا ، ويزيد همًا وغمًا ومرضا بذلك التقيؤ ، ولهذا قلنا بأن العارف يراقب دائما آخر الأنفاس (فالتمسوها في العشر الأواخر) فهو دائما يراقب في الأنفاس الأخيرة .

سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين .

(انتهى تفسير الشيخ رضي الله عنه)

مناجاة للشيخ رضي الله عنه

يا إلهي دعاك عبدك ليلا ... وهو يرجو منك العطايا الجزيله

لاتخيب إلهي ظني فإني ... قد نسبت لكم ونعم القضيله

إن رددت يدي وخيبت ظني ... أي سمح أرجو وأية حيله

كيف ربي يخيب من كان يرجو ... ك ويظن بك الظنون الجميله

آلذل وأنت حبي وحسبي ... انتمائي إليك وهو الوسيله ؟

من رسائل العلامة الشيخ عمر أبي حفص الزموري